الدكتور شوقي أبو خليل

مصرع غرناطة

أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٥,٠٣١

الرقم الاصطلاحي للحلقة: ٠٥١٨,٠٣١

الرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-500-6

الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-57547-512-x

الرقم الموضوعي: ٩٣٠

الموضوع: تاريخ العرب والإسلام

السلسلة: المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام

العنوان: مصرع غرناطة

التأليف: د. شوقي أبو خليل

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ١٢٨ ص

قياس الصفحة: ١٤×٢٠سم

عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية

برقياً: فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦

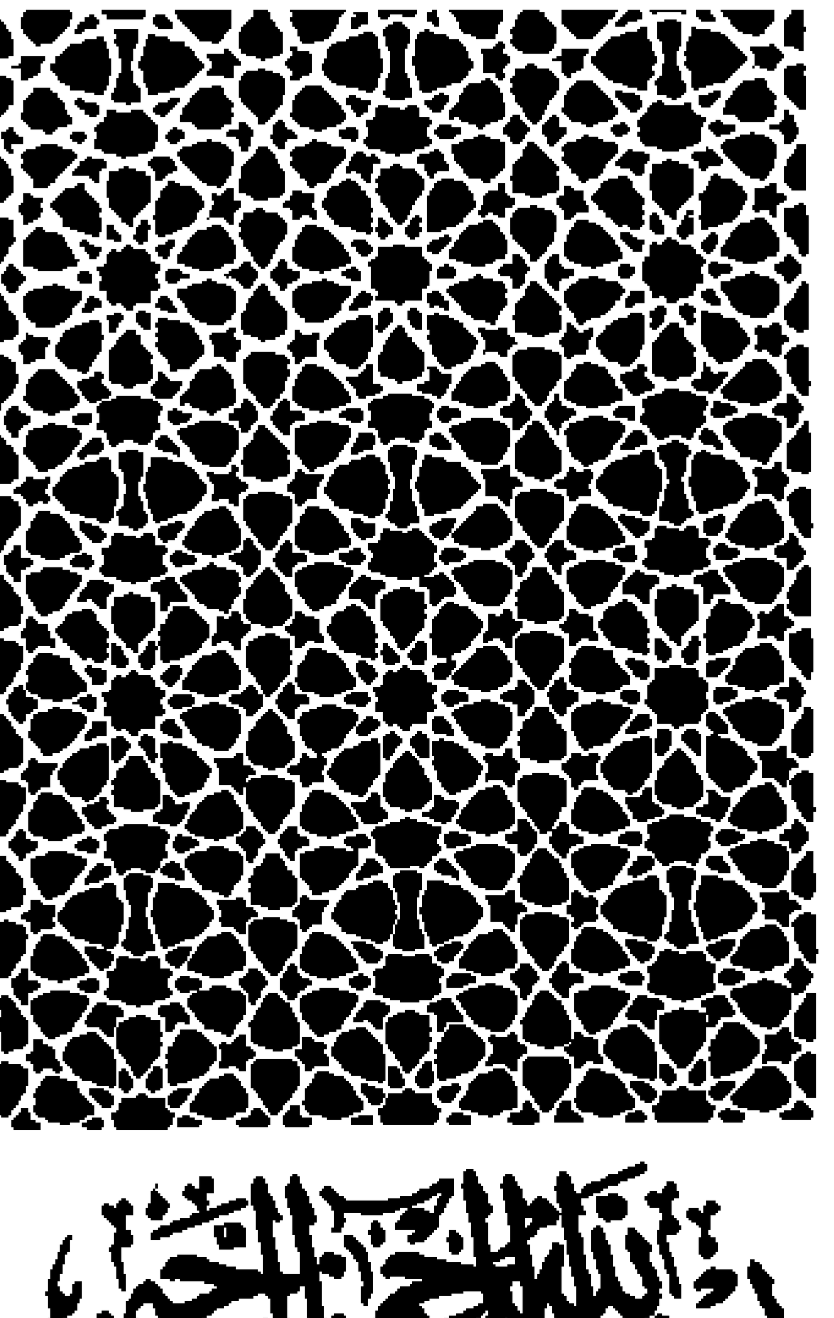
http://www.fikr.com/

E-mail: info @fikr.com

إعادة

1418هـ = 1998 م

ط2 : 1981 م



بسم الله الرحمن الرحيم

مصرع غرناطة

أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر

مصرع غرناطة : أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر/
شوقي أبو خليل . - دمشق : دار الفكر، ١٩٩٨ . -
١٢٥ص ؛ ٢٠سم . - (المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام)
صدرت الطبعة الثانية عام ١٩٨١ .
١- ٩٥٦,٠٧١٢ خ ل ي م ٢- العنوان ٣- أبو خليل ٤- السلسلة
مكتبة الأسد
ع- ١٩٩٨/٢/٣٢٩

تصدير

★ بعد معركة العقاب ،
بدا مصير الاندلس يهتز في
يد القدر ..

بسم الله القائل في محكم التنزيل : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا »[1] .

والقائل جلّ شأنه : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »[2] .

وصلى الله على سيد المرسلين ، محمد بن عبد الله ، المبعوث رحمة للعالمين القائل : « يد الله على الجماعة »[3] . والقائل : « الجماعةُ رحمةٌ والفرقةُ عذاب »[4] ، وبعد ...

---

(١) سورة آل عمران ، الآية الكريمة : ١٣٠ .
(٢) سورة الأنفال ، الآية الكريمة : ٤٧ .
(٣) مسند الامام احمد بن حنبل : ٤/٢٧٨و٣٧٥ .
(٤) رواه الترمذي « في باب الفتن » ، ورواه النسائي أيضا .

انهارت دولة الموحِّدين في الأنـدلس والمغرب على يـد المَرِينيين ، وملَكَ ابن هود قواعد شرقي الأندلس ، وحكم ابن الأحمر قواعد أخرى في الجنوب ، وغلب بعض الأمراء على اشبيلية .. وأخذ هؤلاء الأمراء يتربَّص بعضهم ببعضهم الاخر ، يحاول كل منهم انتزاع ما بيد الآخر من قواعد وحصون .

وشهدت مملكة قشتالة ما يدور في أراضي المسلمين ، فرأت أن الفرصة أضحت سانحة لتوجيه ضربـة مميتة للمسلمين في الأندلس ، فبدأت هجومها بالفعل ، وكان احتلال قرطبة في ٢٣ شوال ٦٣٣ هـ / ٢٩ حزيران « يونية » ١٢٣٦ م ، صيحة النذير المدوِّية .

لقد كان سقوط قرطبة نذيراً للمسلمين لما انتهت إليه حالهم في الأندلس ، من بالغ الضعف والفوضى ، إلى فقدان الأرض والوطن ، ومن ثم فقدان الدين والحضارة والتراث .

وبقيام مملكة غَرْناطة على يد أبي عبـد الله محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن الأحمر بعد موت ابن هود ، بدأت نهايـة حـرب الاسترداد ، أو حـرب الاستعادة القوميـة : « La Recoquisto » التي بدأها الاسبان ساكنو القسم الشمالي ـ الشمال الغربي بخاصة ـ إذ لم يطهِّر أمراء الأندلس بقـايا القوط والناقاريين .. الـذين تجمعوا في القسـم الشمالي من اسبانية ، فكانوا سبب أحـداث وفتن واضطرابات في البـلاد المفتوحة ، ثم قوي أمرهم فيما بعد حتى تم اخراج المسلمين من

الأندلس ، وكان سقوط طليطلة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م إشارة جلية واضحة تدل على مدى تأهّب العدو وقوته التي ادخرها لحرب المسلمين ، مغتنماً وحدة صَفّه ، وتجمع قواه ، وضعف المسلمين الناتج عن تنازعهم ، وتفرّق كلمتهم ، وتربصهم بعضهم ببعضهم الآخر ، وميلهم إلى اللهو والملذات .

وتمتّعت غَرْناطة — على الرغم من صغر رقعتها وضآلة مواردها — بأهم عنصر لبقائها زهاء قرنين ونصف القرن ، ألا وهو وجودها في أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية من الأندلس ، قرب عدوة المغرب ، حيث عون وغوث « المرينيين » اخوتهم في الدين ، فكان ملوك بني الأحمر يستغيثون بهم ، فهم الذين ملؤوا الفراغ الذي تركه الموحّدون بعد سقوط دولتهم .

وهكذا .. وكلما لاح شبح الخطر ، كانت غرناطة تتجه بانظارها إلى الدولة الفتية ، دولة بني مَرِين التي ملكت المغرب الأقصى كله ، ويشاء الله سبحانه أن تلعب دولة بني مَرِين الدورَ الذي قام به المرابطون والموحّدون من قبل ، فكان للمرينيين أثر عميق في مجريات الأمور في الأندلس ، فملوك بني الأحمر لم يفتهم أن المرينيين هم حليفهم الطبيعي ، فكانوا يستغيثونهم ويطلبون النجدة والمدد منهم كلما لاح خطر الصليبية القشتالية الاسبانية .

لقد كانت الشؤون الأندلسية بحق أمراً هاماً ورئيساً في

السياسة المرينية ، التي كان الجهاد ضد أعداء الإسلام في الأندلس أهم ما تطلّعت إليه دولتهم •

وكانت روح الجهاد عند المرينيين ، وصولة الإسلام في العدوة المغربية تخيف إسبانية النصرانية ، ولكنها كانت على يقين أن الموقف العسكري إلى جانبها ، فقد أضحت مملكة غرناطة محاطة بقوى نصرانية من كل صوب ، والأمور مهيأة لمصرع غَرْناطة معقل الإسلام الوحيد الباقي في الأندلس •

وتمّ مصرع غَرْناطة في الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ هـ / الثاني من كانون الثاني « يناير » سنة ١٤٩٢ م ، وسلم أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر مفاتيح غَرْناطة لفرديناند وايزابيلا ـ الملكين الكاثوليكيين ـ لتبدأ مأساة الموريسكيين « العرب المتنصرين » ، في محاكم التفتيش التي سوّدت بفعالها الشنيعة ، ومحاكماتها الجائرة ، وسجونها ومصادراتها •• صحفَ التاريخ الإسباني زهاء ثلاثة قرون ، والتي هدفت أولاً وآخراً إلى تنفيذ حكم الاعدام في أمة مسلمة بكاملها •

يقول الكردينال ريشليو الفرنسي معاصر مأساة محاكم التفتيش : « **إنها أشد ما سجلت صحف الإنسانية جرأة ووحشية** » •

إن قصة الموريسكيين ، قصة تفيض بألوان القتل الجماعي ، والتشريد المحزن ، وهي تفيض في الوقت ذاته بالإباء والبسالة والصبر والجلد ، تخلّق بها شعب من آنبل الشعوب ، فعلى الرغم

من عسف وروع ورهبة محاكم التفتيش وبطشها ، بقيت بقية قليلة في جنوب مملكة غرناطة ، لها مسجدها الصغير حتى عام : ١٧٦٩ ، تحافظ ما استطاعت في قرارة نفوسها على تراثها الإسلامي ، وما زالت الى يومنا هذا تفتخر وتعتز بأصلها وشجرة نسبها الى الإسلام والعرب .

رأى الشاعر عمر أبو ريشة فتاة اسبانية ، فحدثته عن أمجاد أجدادها القدامى من العرب المسلمين ، دون أن تعرف جنسية الشاعر :

قلتُ ياحسناءُ،مَنْ أنت ومِن	أيّ دوحٍ أفرع الغصن وطالا
فَرَنت شامخةً أحْسَبُها	فوقَ أنْساب البرايا تتعالى
وأجابت : أنا مِن أنْدلسٍ	جَنَّة الدنيا عبيراً وظِلالا
وجدودي ، ألمحُ الدهرَ على	ذكرهم يطوي جناحيه جلالا
بوركت صحراؤهم كم زخرت	بالمروءات رياحاً ورمالا
حملوا الشرقَ سناءً وسنىً	وتخطَّوا ملعب الغرب نضالا
فَنَما المجدُ على آثارهم	وتحدّى، بعد مازالوا،الزوالا
هؤلاء الصِّيد،قومي،فانتسب	إن تجدْ أكرم من قومي رجالا!
أطرق القلب ، وغامت أعيني	برؤاها، وتجاهلتُ السؤالا!!

* * *

لقد قصدت اسبانية إبادة أمة اندلسية بعد مصرع غرْناطة ، فوجّهت ضربة شديدة لرخائها وعظمتها ، فخفقت أعلام الخراب بسيادة ديوان التفتيش ، وخربت المدائن الكبيرة العامرة ، وذوت

نضرة الوديان الخصبة، ليحل محلها البؤس،والبؤساء واللصوص، مكان طلاب العلم والتجارة والأمان ••

وسنرى في هـذا الجزء ــ الحادي عشر ــ مـن سلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الاسلام » الأحـداث التي سبقت مصرع غَرْناطة ، ومصرعها ، والأحداث التي تلت مصرعها • وسنلمس أن ذلك كان أمراً مدبَّراً قررته إسبانيـة ، ونفذتـه حكومات صليبية متعصِّبة ، فلما تحقق لها ذلك أصبحت المأساة أكبر ، والخطب أمـرّ ، مأساة شعب بكامله ، وخطب محـو حضارته وآثاره التي أقامها بذكاء وعبقرية على مدى ثمانية قرون• وتناسى الاسبان في حينها أن المسلمين وتراثهم في الأندلس ، إنما هو صفحات مجيدة منيرة وضاءة في تاريخ إسبانيا بخاصَّة ، وفي تاريخ الإنسانية بعامَّة •

واليوم تهتم إسبانيا بما بقي في أقبية دير الاسكوريال ، مما تركه أجدادها المسلمون لقد تجرّد بعض مؤرخيهم عن الـروح الصليبية القديمة ، التي باعدت بينهم وبين تراث تعتز به البشرية ، وعملوا بروح من الانصاف لإظهار عظمة الأندلس ورفيع حضارتها في مؤلفاتهم ، مع نقـد بالغ للسياسة الإسبانية المتعصبة ، التي ارتكبت جرائمها بحق المسلمين وتراثهم •

يقول المؤرخ والمفكر الإسباني « سانسيت أولبورنوت » :

(إن الفتح العربي لاسبانية جلب إليها كل الخير) •

ويقول « ول ديورانت » في قصة الحضارة : « **لم تشـهد**

بلاد الأندلس في تاريخها كله حكماً أكثر حزماً وعدالة وحرية مما شهدته في أيام فاتحيها العرب » .

والتاريخ يشهد أن اسبانية تبوّأت في التاريخ مركز القوة العظمى في العالم مرتين ، المرة الأولى : في القرن العاشر الميلادي زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر ، والمرة الثانية : في القرن السادس عشر ، أي في الفترة التي كانت فيها إسبانية لا تزال تعيش مرحلة تمثّل الحضارة العربية الإسلامية وهضمها .

فلا عجب بعد ذلك بعد أن عُزِلَت التأثيراتُ الصليبية ، وظهر وجه الحقيقة العلمية في دراسة التاريخ ، أن تقيم مدينة قرطبة في ١٥ تشرين الأول ١٩٦١ م بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة عبد الرحمن الناصر احتفالاً مهيباً ، تردّدت أصداؤه في جميع أنحاء اسبانية ، ووضعوا عمودين على جانبي بوابة مسجد قرطبة ، حفرت عليهما بالعربية وبالاسبانية تحية وفاء وعرفان بالجميل لروح عبد الرحمن من مواطنيه سكان قرطبة .

★ ★ ★

وفي هذا الجزء من « المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام » ، سنرى قيام دولة بني مَرِين معتمدين على مصدرين هامين : الأول : « الذخيرة السَّنيَّة في تاريخ الدولة المَرِينية » ، والثاني : « روضة النسرين في دولة بني مَرين » .

وعند الحديث عن قيام مملكة غَرْناطة ، أو دولة بني الأحمر « بني نصر » سنعتمد « اللمحة البدرية في تاريخ الدولة

النّصريّة » ، و « الإحاطة في أخبار غرناطة » لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب .

وعند بحث مصرع غَرْناطة سنعتمد بصورة رئيسة كتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان : « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرِّين » مع ما جاء في « ابن خلدون : العِبَر » ، و « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » .

وعند الحديث عن « محاكم التفتيش » اعتمدنا بالإضافة إلى « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرِّين » ، كتابين : الأول : « محاكم التفتيش » للدكتور علي مظهر ، والثاني : « التعصّب والتسامح بين المسيحية والإسلام » للأستاذ محمد الغزالي .

وفي الخاتمة نستخلص بعض العبر والعظات من ضياع « الفردوس المفقود » من كتابنا : « عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي » .

هذا ... وسيلاحظ القارىء أن هناك ربطاً تاريخياً بين الأحداث التي سبقت وأدّت إلى مصرع غرناطة ، والأحداث التي تلت ، لأخذ فكرة تامة عن سير الأحداث التي انتهت بضياع الأندلس ، أرضاً وتراثاً .

فإلى المادة التاريخية سائلين الله عز وجل التوفيق ، فهو من وراء القصد .

شوقي أبو خليل

دمشق ـ سورية
ص.ب ٦٢٢٢

الشام : ١٥ رمضان المبارك ١٣٩٩ هـ
الموافق ٨ آب ١٩٧٩ م

المغرب ما بعد الموحدين

✶ الحفصيون في تونس
✶ بنوزيان في الجزائر
✶ المرينيون في المغرب الاقصى .

لا توجد حواجز طبيعية تميِّز حدود كل من تونس والجزائر والمغرب ، ومع ذلك .. بدأت سمات الانقسام بين أجزاء المغرب العربي الثلاثة تظهر في القرن الثالث عشر الميلادي حين سقطت دولة الموحِّدين، لتحل محلها بالتدريج دول ثلاث : دولة الحفصيين في تونس ، وبنو زيَّان في المغرب الأوسط « الجزائر » ، وبنو مَرِين في المغرب الأقصى .

١ ـ الحفصيون :

سقطت دولة الموحِّدين في المغرب والأندلس ، ولكنها بقيت في تونس على يد الحفصيين الذين ينتسبون الى الشيخ أبي حفص

يحيى بن عمر الهنتاتي[1] • فالحفصيون امتداد سياسي للموحدين لأنهم تربوا في أحضانهم ، وعاشوا في مناخهم العقلي فترة كبيرة من الزمن ••

وكان أبو حفص يحيى قد قام بدور هام في نشر دعوة المهدي محمد بن تومرت ، وفي اسناد الحكم الى عبد المؤمن بن علي ، ودعم نفوذ الموحدين في المغرب والأندلس ، بفضل زعامته لقبائل مصمودة التي تعتبر أكبر قبائل المغرب كافة[2] •

وبسبب انتساب الحفصيين إلى قريش ، وبالتالي إلى النبي الكريم ﷺ ، استطاعوا أن يضفوا على حكمهم صبغة شرعية ، وأن يؤسِّسُوا دولة مستقلة ، امتدت أيام السلطان أبي زكريا الحفصي سنة ٦٢٦ هـ من طرابلس الغرب شرقاً إلى سبتة غرباً ، وإلى سجلماسة جنوباً •

وأعلن ابنه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي نفسه خليفة ، وتلقَّب بلقب أمير المؤمنين « المستنصر » في سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م ، أي بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي التتار ، ومقتل الخليفة المستعصم بسنة واحدة •

وعلى أثر ذلك بايع شريفُ مكة المكرَّمة ، وأهلُ الحجاز الخليفةَ الحفصي ، باعتباره وارثاً للخلافة العباسيَّة ، ودعا له على

---

(١) من هنتاته احدى بطون مصمودة •

(٢) راجع المعجب للمراكشي ، ص : ٣٣٩/٣٤١ •

منابر بلاده ، ولقّبه أمير المؤمنين[1] . وبذلك أكسبت هذه البيعة الخلافة الحفصيّة صبغة شرعية ، وزادها قوة في تتبّع الخصوم والقضاء عليهم ، وفي الوقوف أمام غزوة لويس التاسع بعد عودته مهزوماً من مصر .

واعترف بنو مَرِين في بدء تأسيس دولتهم بالخليفة الحفصي ، وكذلك في الأندلس أقيمت الخطبة للحفصيين على منابرها .

وكذلك بنو زيان[2] في المغرب الأوسط أقاموا الدعوة للخليفة الحفصي ، وبذلك امتد سلطانُ الحفصيين الروحي على بلاد الحجاز شرقاً ، إلى المغرب والأندلس غرباً ، وغدت مدينة تونس عاصمة سياسية وثقافية هامة ، جذبت السفراء والعلماء من كافة أرجاء العالم .

قضي على هذه الدولة بسبب الانقسامات الداخلية ، فكان أحد الحفصيين يحكم في مدينة تونس وآخر في بجاية وثالث بتوزر وآخر في قسنطينة .

ومن أسباب سقوطها ، أنها أضحت بين فكي كماشة دولية ، أولهما الإسبان الذين أغرتهم انتصاراتهم على مسلمي الأندلس

---

(١) الاستقصاء ج : ٢ ، ص : ١٩٦/٢٠٠ .

(٢) تاريخ الاسلام ، ج : ٤ ، ص : ٣١٧ ، وهم أيضا : بنو حمو ، أو بنو عبد الواد ، أو بنو يغمراسن .

بانتقام من المسلمين في أي مكان[1] ، وثانيهما الاتراك العثمانيون. فوضع الحفصيون أنفسهم تحت حماية الغزاة الإسبان ، ولما زادت قوة العثمانيين البحرية ، ضموا تونس إليهم .

ومما يحمد لهذه الدولة ايواؤها للمسلمين المهاجرين والمنفيين من الأندلس ، ومن جزر البحر المتوسط الغربية .

★ ★ ★

٢ ـ دولة عبد الواد « بنوزيّان » :

وفي منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ظهرت دولة بنو عبد الواد ، واتخذت من مدينة تلمسان حاضرة لها ، أسّسها يغمراسن بن زياد ، وازدهرت تلمسان في ظل دولة عبد الواد كمركز ثقافي .

ولم تحكم دولة عبد الواد سوى الجزء الغربي مما يقابل مدينة الجزائر حالياً ، وطمع كل من الحفصيين وبني مَرِين في الاستيلاء عليها ، ودخل المرينيون فعلاً مدينة تلمسان في منتصف القرن الرابع عشر . وفي سنة ١٣٥٩ م أحيا أبو حمو الثاني الدولة ، وأصبحت تعرف باسم الفرع الجديد وهو « بنو زيان ».

ومع أن تلمسان كانت تعتبر في ذلك الوقت حاضرة المغرب الأوسط ، إلا أن المدن الساحلية كانت جمهوريات مستقلة ، أشبه

(١) راجع تاريخ الاسلام ، ج : ٤ ، ص : ٣١٨ ، و « المغرب العربي » د. صلاح عقاد ، ص : ١٢.

بالجمهوريات القائمة على الساحل المواجه لايطاليا ، وقد أدّى هذا التفكك إلى طمع الصقليين بالجزائر ، فغزوا بعض مدنها الساحلية ، واحتلوها فترة خلال القرن الرابع عشر ، ولم تتحقّق للجزائر وحدتها الاقليمية إلا في العهد العثماني .

★ ★ ★

٣ ـ المرينيون :

ينتسب المرينيون إلى أمير المؤمنين علي بن آبي طالب رضي الله عنه[1] . وهم فخذ من زناتة ، وزناتة كلها عرب الأصل من مضر . وهم من ولد الأمير ماخوخ الزناتي ، وطنه أرض الزاب بافريقية ، من جبال يقال لها « ايكجان » ، ثم ولي الامارة من بعده « مَرِين » بن ورتاجن ابن الأمير ماخوخ ، ومن مرين هذا تشعَّبت قبائل بني مرين .

ويعتبر عبد الحق ابن الأمير محيو ابن الأمير آبي بكر ابن الأمير حمامة بن محمد ، أبا الملوك من بني مرين ، دخل الشمال الإفريقي ، وجذب إليه البربر وحارب الموحِّدين ، وعرب رياح التابعين لهم ، بموضع يعرف « بواجْرهان » بمقربة من وادي سَبْو على أميال من قرية « تافرطاست » .. قتل فيها الأمير عبد الحق وولده ادريس[2] .

---

(١) نسبهم : عبد الحق بن محمد بن أبي بكر بن حمامة بن زياد بن محميو بن محمد بن علي بن تاشفين بن يحيى بن علي بن ابراهيم بن اسماعيل بن عمر ابن أمير المؤمنين الحسن ابن امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنهم .

(٢) راجع : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، (في المكتبة الظاهرية بدمشق « م ـ ٦٠٩ ») . و « روضة النسرين في دولة بني مرين » لابن الاحمر ، (في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم « و ـ ٩١٧٣ ») .

كان رحمه الله مشهوراً في قبائل بني مرين بالتقى والصلاح والبركة ، معروفاً عندهم بالورع ، موصوفاً في أحواله وأحكامه بالعدل ، يطعم الطعام ، ويكفل الأيتام ، ويؤثر المساكين ، ويمن على الفقراء والمستضعفين ، وكانت له بركات معروفة ، ودعاء مجاب ... وكان على سنن أهل الفضل والدين ، يصوم في شدة الحر ، قائماً في ليالي البرد ، ولا يرى مفطراً إلا في أيام الأعياد ، كثير الذكر والتسبيح والأوراد والأذكار ، لا يكاد يفتر عن الذكر في كل أحواله ، ولا يأكل إلا الحلال المحض من طيب كسبه ، ولحوم إبلِه وغنمه وألبانها ، أو مما يصيده بيده ، فكان في قبائل مَرِين عالماً مشهوراً ، وأميراً مطاعاً ، يقفون عند أمره ونهيه ، ويصدرون عن رأيه في جميع أمورهم(١) .

ويعتبر عام ٦١٣ هـ عام انكسار الموحدين أمام بني مرين ، بفحص الدار من أحواز تازا(٢) .

وفي أيام الأمير أبي يوسف بن عبد الحق نزل الإسبان اشبيلية ، فعزم على الجواز الى الأندلس والجهاد ونصرة الإسلام،

---

(١) روضة النسرين .. صفحة : ١٠

(٢) ويسمى هذا العام « عام المشغلة » ، ومما يذكر أن المرينيين قدمت بلاد المغرب عام ٦١٩ هـ :

قدمت مرين الى بلاد المغرب	والسعد يصحبها لنيل المطالب
في عام عشر بعد ست قد مضت	مئين فاحفظه وقيد واكتب

وقال أبو فارس محمد بن عبد العزيز الملزوزي :

في عام عشرة وستمايه	أتوا الى المغرب من البريه
جاؤوامنالصحراء والسباسب	على ظهور الخيل والنجائب

*راجع : الذخيرة السنية .. صفحة : ٢٥ .

ولكن أخاه كتب الى أبي علي بن خلاص صاحب سبتة ألا يمكّنه من الجواز ، ولما وصل أبو يوسف بن عبد الحق الى قصر المجاز وهو على عزمه اجتمع هنالك بالشيخ الصالح أبي عبد الرحمن يعقوب بن هرون ، فجلس معه على صخرة هنالك ، فمنعه من الجواز ، وقال له : مالك من هذه العدوة زوال في هذا الوقت حتى تملك جميع بلاد المغرب ، وتفتح حضرة مراكش وتقطع ملك بني عبد المؤمن ، وحينئذ تجوز إن شاء الله تعالى كما تحب وعَلَمُك منشور ، وجيشك منصور ، فرجع عن عزمه •

واستطاع الأمير أبو يحيى بن عبد الحق دخول مدينة فاس وتملكها وانقطع ملك الموحدين فيها يوم الخميس ٢٦ ربيع الآخر من سنة ٦٤٦ هـ ، وفتح الأمير أبو يوسف سجلماسة سنة ٦٤٣ هـ وتغلغل المرينيون في المغرب، حتى تمّ اسقاط حكم الموحدين ودخول مراكش عاصمتهم عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م •

وابتداء من هذا التاريخ يمكن ادراك أنهم أصبحوا قوة حقيقية في المغرب ، وبخاصة بعد أن ردّوا الإسبان الذين كانوا قد قدموا لاحتلال سلا •

على أنهم حين تلفتوا حولهم وجدوا فراغاً لا يستطيع الحفصيون ملأه ، ولا تلك الرياسات التي تخفقُ فوق القبائل وتتكلم باسمها ثم تذبل وتتوارى ، ومن هنا نراهم يعقدون العزم على وضع يدهم على المغرب الأوسط « الجزائر » وعلى المغرب الأدنى « تونس » ، وقد تم لهم ما أرادوا •

وفي الوقت نفسه لم يكونوا غافلين عن الصراع الذي يدور في الأندلس بين المسيحيين والمسلمين ، ورغبة الاسبان المستمرة في تحطيم قوى المسلمين هنـاك ، وفي افريقية نفسها الى حـد الاستيلاء على الثغور الافريقية ..

فإذا أضفنا إلى ذلك أن « بني الأحمر » في غرناطة كانوا على اتصال دائم بالمرينيين ، لأنهم كانوا يحسون أن اسبانيا قـد وضعت في مخططها العمل على تنصير البـلاد وتوحيدها ، وأن قواهم تضعف أمام القوى المسيحية هناك .. ومن هنـا كانت استجابتهم للصرخات التي وجهت اليهم من بني الأحمر ، وكـان خروج يعقوب بن عبد الحق عام ٦٦٨ هـ إلى الأندلس في غزوة ردت الى بني الأحمر جاههم ، ومع أن بني الأحمر خافوا منهم ، ووقفوا منهم موقفاً معادياً إلا أنهم أدركوا في نهاية الأمر أنه لا بد لهم من هذه الحماية الافريقية ، كلما اشتد عليهم الضغط هناك[1].



(١) مع حركة الاسلام في افريقيا ، د. عبده بدوى ، صفحة : ٦٩ .

الأندلس ما بعد الموحدين

✶ ابن هود في جيان وقرطبة وماردة وبطليوس ، بدأ بقتال خصمه ابن الأحمر ، فوجد النصارى الفرصة سانحة للزحف على قرطبة .

ظهر في أواخر عهد الموحدين ابن هود[1] ، الذي سعى جاداً إلى تخليص الأندلس من الموحدين ، ومن النصارى أيضاً .

وعمل ابن هود على احياء الشريعة الإسلامية ، والسُّنَّة النبوية الشريفة ، وليثبت مركزه دعا للخلافة العباسية ، وكاتب الخليفة المستنصر العباسي ببغداد ، فبعث المستنصر لابن هود خلعاً ومراسيم ، وعندها تلقّب ابن هود « بالمتوكل على الله » . ودخلت في طاعته جيان وقرطبة وماردة وبطليوس ، وانتزع غَرْناطة من المأمون الموحّدي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م .

(١) حدود ابن هود مابين الجزيرة الخضراء والمرية ، ومابين قرطبة وغرناطة .

خاض ابن هود مع فرديناند الثالث ملك قشتالة معركة ، دارت أحداثها في ظاهر ماردة ، انتهت بسقوط ماردة وبطليوس في يد الإسبان النصارى سنة ٦٢٨ هـ ، كما هُزِم ابن هود أيضاً في فحص شريش على ضفاف نهر وادي لكّة ، وذلك في أواخر ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م ، وسقطت بعدها بيد فرديناند « آبدة » عام ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م .

وبعد هزيمة شريش سار ابن هود لقتال خصمه ومنافسه محمد بن الأحمر في أحواز غَرْناطة فوجد النصارى الفرصة سانحة للزحف على قرطبة ، التي سقطت بيدهم وبالفعل في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ / ٢٩ حزيران « يونيه » سنة ١٢٣٦ م ، وفي الحال ـ كما هي العادة ـ حُوِّل مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وكان لسقوط قرطبة أثره البالغ في أحداث الأندلس القادمة ، فسقوطها ضربة مميتة أخرى صوبتها اسبانيا النصرانية الى قلب الأندلس القادمة ، فسقوطها ضربة مميتة أخرى صوبتها اسبانيا النصرانية إلى قلب الأندلس المفكّكة المنهوكة القوى .

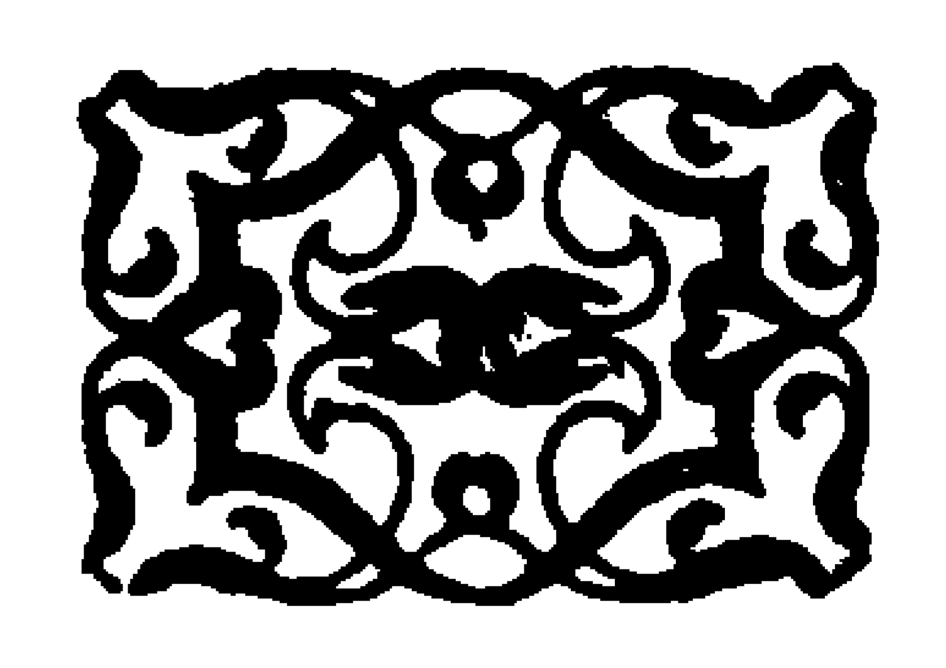
توفي ابن هود في ثغر المريّة في أوائل سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م ، ويقال ان وزيره ونائبه على المرية أبا عبد الله بن محمد ابن عبد الله الرميمي دبر قتله غيلة . وبوفاته انهارت دولته .

وسارع جايم ملك أراغون لانتهاز الفرصة ، فغزا ولاية بلنسية ، التي كانت ما تزال في يد الموحّدين تحت إمرة أبي عبد الله محمد أخي المأمون الذي استغاث بملك أراغون وانضوى

تحت لوائه خوفاً من ابن هود ، وتعهد بدفع الجزية لجايم ، فثار أهل بلنسية واختاروا أبا جميل زيان سليل آل مردنيش أمـراء بلنسية السابقين ، ففرّ أبو عبد الله محمد أمام السخط العـام والتجأ إلى ملك أراغون ، واعتنق النصرانية • وغزا جايم بلنسية وحاصرها ، واستغاث أبو جميل زيان بأمير تونس الحفصي ، فلم يغنه ذلك شيئاً ، وسقطت بلنسية في يد النصارى الاسبان في صفر سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م ، ثم استولى على شاطبة ودانية •

أما ولاية مرسية فقد انضوت تحت حماية ملك قشـتالة فرديناند ••

وهكذا سقطت ولاية بلنسية ومرسية وشرقي الأندلس في يد النصارى الإسبان في أعوام قليلة فقط •



بنو الأحمر في غرناطة

★ **قامت مملكة غرناطة في الآونة التي أخذت فيهـا قواعد الأندلس تتساقط بيـد الاسبان ، وكتب الله لها البقاء قرابة قرنين ونصف من السنين .**

غَرْناطة : اسم مشتق من Granate الرومانية ، وهو يعني « الرمانة » . وسميت بذلك لجمالها وكثرة حدائق الرمان التي تحيط بها . وقيل إنها سميت كذلك لأنها بموقعها وانقسامها على التلَّيْن تشبه بمنازلها الكثيفة الرمانة المشقوقة .

تقع غرناطة على الضفة اليمنى لنهر شَنيل ، أحـد فروع الوادي الكبير ، ويخترقها فرعه المسمى نهر دارّو أو هدارة أو حدارة ، ويلتقي به عند جنوبي غرناطة .

كانت غرناطة مدينة صغيرة من أعمال ولاية إلبيرة ، افتتحها المسلمون بقيادة طارق بن زياد عقب موقعة وادي لكة في رمضان ٩٢ هـ ، تموز « يوليو » سنة ٧١١ م .

تشرف من الجنوب الغربي على سهل متَّسع أخضر هو المرج ، أو الفحص الذي يمتد غرباً حتى مدينة لَوْشة . ومن الجنوب الشرقي تشرف على جبال « سييرا نيفادا : Sierra Nevada » أو جبل شُلير ، التي تغطي آكامها الثلوج الناصعة .

توسَّعت غرناطة وقامت بها جنات أو « جِنَان » ، وذكر ابن الخطيب أنها أكثر من مائة جنة ، وذكر أن منطقة غرناطة كانت تضم زهاء ثلاثمائة قرية عامرة ، وكان عدد سكانها نصف مليون نسمة ، مع عمارة إسلامية بديعة[1] .

★ ★ ★

لقد قامت مملكة غرناطة في الآونة التي أخذت فيها قواعد الأندلس تتساقط بيد الإسبان ، وذلك لسببين اثنين :

١ً ـ أصبح الوادي الكبير شمالها حاجزاً طبيعياً بين الأندلس المسلمة واسبانية النصرانية .

٢ً ـ قامت مملكة غرناطة قرب عُدْوة المغرب وشمال افريقية ، حيث دول إسلامية تمد الأندلس وتنجدها في ساعات

---

(١) وغرناطة اليوم فيها ٨٠ الف نسمة فقط ، قد زال عنها بهاؤها السابق ، وبقيت بعض صروحها ومعالمها الاسلامية ، واهمها قصر الحمراء ، ومسجدها الذي حول الى كنيسة ، وبقي من معالمها القديمة حي البيازين الواقع في غربها ، ومازالت قنطرة شنيل قائمة على النهر عند التقائه بفرعه حدارة وتحمل اسمها القديم .

الحرج • فكلما اشتد الخطر في الأندلس جاء المدد من الـدول الشقيقة في المغرب •

ففي الوقت الذي أخذت قواعد الأندلس تضيع ، ينتزع بعضها ابن هود وثوار النواحي ، وبعضها الآخر ينتزعه النصارى، ظهر محمد بن يوسف النصري ، المعروف بابن الأحمر ، سليل بني نصر ، الذين يرجع نسبهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنه[1] •

ولد ابن الأحمر في أرغونة سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٨ م • وسنحت له الفرصة لما ضعف الموحدون وظهر ابن هود عليهم في الثغـور الشرقية ، فضم ابن الأحمر بياسة ووادي آش ، وكسب عون أبي زكريا الحفصي ، صاحب تونس ، عندما دعا له ، فتلقى منه بعض العون ، فأطاعته جيان وشريش ومالقة •• وكثير من الحصون •

ولما قويت شوكة ابن هود وأمَّره الخليفة العباسي ، وبعد أن استولى على غرناطة ، انضم ابن الأحمر إليه وصانعه ، وجاهر بطاعته • ولما انهارت دولة ابن هود في أوائل سنة ٦٣٥ هـ ، سارع محمد بن يوسف « ابن الأحمر » لضم أراضي ابن هود إليـه ، ولما ثار سكان غرناطة على عتبة بن يحيى الذي حكم غرناطة بعد ابن هود سار ابن الأحمر إليها ، ودخلها في أواخر رمضان ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨ م ، وبذلك غدت غرناطة حاضرته ومقر حكمه • وبعدها

---

(١) ابن الاحمر : هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر ابن قيس الخزرجي •

فتح المريَّة ، فغادرها ابن الرميمي وزير ابن هود الى تونس تحت حماية أبي يحيى الحفصي .

لقد ساعد ابن الأحمر في اكتساح الجنوب كله أصهاره بنو أشقيلولة . وبذلك قامت دولة بني الأحمر في غرناطة على أثر انهيار الموحدين وابن هود .

ومما يذكر بالأسف والألم أن بعض الزعماء في الأندلس ارتضوا أن يعقدوا الصلح مع ملك قشتالة ، على أن يعترفوا لابن الأحمر بالطاعة ، وذلك مثل مُرْسيه التي سلمت إلى ألفونسو[1] ولد فرديناند الثالث ملك قشتالة ، فدخلها سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣ م في احتفال كبير فخم .

لقد رأى فرديناند الثالث ابن الأحمر منافساً جديداً بعد موت ابن هود ، وقدَّر ابن الأحمر الموقف وخطورته ، فقرر مجابهة النصارى لاستخلاص ما أمكن من أيديهم ، فقابلهم سنة ٦٣٦ هـ بمعركة صغيرة انتصر فيها ، فاغتاظ ملك قشتالة ، وأرسل قوة كبيرة بقيادة ابنه ألفونسو ، فاستولى على حصن آرجونة ، وحاصر غرناطة ذاتها سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م ، فردَّهم ابن الأحمر بخسائر فادحة . ولكن جَيَّان كادت تسقط في العام التالي، فلمس ابن الأحمر تفوُّق النصارى وعبث مقاومته ، فهادن فرديناند الثالث ، ورضي أن يحكم باسمه ، وأن يؤدي له الجزية سنوياً وقدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب ، وأن يعاونه في

---

(١) وهو ألفونسو العاشر : حكم بعد أبيه فرديناند الثالث : (٦٥٠ ـ ٦٨٢ هـ / ١٢٥٢ ـ ١٢٨٣ م)

حروبه ضد أعدائه بتقديم عدد من الجند ، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي « الكوريتس » ، باعتباره من الأمراء التابعين إلى العرش القشتالي ، وسَلَّم أيضاً جيَّان وأرجونة رهينة لحسن طاعته ، كما سَلَّم له المنطقة الساحلية الواقعة غربي الجزيرة الخضراء الممتدة من ثغر قادس جنوباً ، حتى طرف الغار ، واسمها عند ابن خلدون « الفرنتيرة Fronterra »[1] .

ولعل ابن الأحمر « محمد بن يوسف » ضحى باستقلاله وهيبته حفاظاً على الأرض ، وتطلعاً الى ظرف أفضل يصمد فيه في جهاده ضد أعدائه .

وبذلك سيطرت اسبانيا النصرانية على الولايات الشرقية ، وبقي التهام الولايات الغربية في الأندلس . وفي عام ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م نزل ابنُ محفوظ لملك قشتالة عن مدينة طلبيرة وشلب والخزانة ومرشوشة والحرة ... وفتح قرمونة بمعاونة ابن الأحمر حسب عهودهما ، وتعتبر قرمونة درع اشبيلية الأمامي ، ولم تأت أواسط سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م إلا والحصون حول اشبيلية مُسَلَّمة إلى النصارى بنصح ابن الأحمر ، الذي تعهَّد له ملك قشتالة بحقن دماء المسلمين ، وبدأ حصار اشبيلية في آب « اغسطس » ١٢٤٧ م ، وكان حاكمها أميراً من الموحِّدين هو السيد أبو عبد الله ، يعاونه في الدفاع عنها ابن أخيه أبو الحسن بن

---

(١) راجع « نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين » محمد عبد الله عنان ، ط : ١ عام ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م والكتاب في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم : (و ـ ٤٦٣٤) .

أبي علي حاكم قرمونة السابق ، وصمم فرديناند الثالث على فتح المدينة ، فتسابق الى ذلك الصليبيون من كل أرجاء المملكة ، ليشكّلوا حملة صليبية جديدة اشترك فيها الأمراء والأشراف والأحبار ، يعاونه ابن الأحمر حسب تعهده بفرسان مسلمين ، يريدون اسقاط حاضرة الإسلام في الأندلس . وقرّر سكان اشبيلية الدفاع عنها ، فطال الحصار ، وساعدها في ذلك تلقّيها بعض المؤن عن طريق الوادي الكبير ، وذلك من اخوانهم في عُدْوة المغرب .

وجاءت استغاثة إلى عدوة المغرب ، مُلَخَّصُها الأبيات التالية :

يا معشر العرب الذين توارثوا	شيم الحمية كابراً عن كابر
إنّ الإله قد اشترى أرواحكم	بيعوا ويهنئكم وفاء المشتري
أنتم أحق بنصر دين نبيكم	ولكم تمهد في قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا	ذاك البناء بكل لدن أسمر[1]

دام الحصار ثمانية عشر شهراً ، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد في الدفاع عن اشبيلية ، وأخيراً جاء مصير أسود محتوم ، لقد استسلمت المدينة لفرديناند الثالث ، على أن يُخَيَّر المسلمون بين البقاء في اشبيلية ، أو يهاجروا منها ، وكان ذلك في ٢٣ تشرين الثاني « نوفمبر » ١٢٤٨ م / ٢٧ رمضان ٦٤٦ هـ ، وفي الحال حُوِّل مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وأزيلت

(١) في « الذخيرة السنية » صفحة : ٧٤ ، القصيدة كاملة .

منها معالم الإسلام ، وتوزع أهلوها في الحواضر الإسلامية الباقية •

لقد كان سقوط اشبيلية ايذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها وبين مصب الوادي الكبير ، فاستولى النصارى تباعاً على : شريش ، شذونة ، قادس ، شلوقة، غليانة ، روضة ، ثغر شنتمرية ، وغيرها ••• وسلّم ابن محفوظ في الوقت نفسه للنصارى حصن اللقوة ووادي آنة وشنتل وشلطيش وعاون ابن الأحمر النصارى في الاستيلاء على ثغر قادس • وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية في غربي الأندلس ، وانكمشت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة •

« وكان موقف ابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً ، فقد كان يقف الى جانب أعداء أمته ودينه ، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادي والأدبي ، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية ـ وقد أيقنوا بانهيار سلطان الإسلام في الأندلس ـ يهرعون إلى احتذاء مثاله ، والى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة[1] » •

★ ★ ★

---

(١) نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، صفحة ٣٣ •

ابنُ الأحمر يخرجُ عن طاعةِ الإسبان

✶ فاتحه النصارى بالحرب وغزو أراضيه ، فردهم بمعونة أخوة مجاهدين قدموا من عدوة المغرب .

هل قبل ابن الأحمر « محمد بن يوسف » هذا الوضع المؤلم انقاذاً لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد ، وتنفيذاً لأمنية كبيرة بعيدة المدى ؟

هل طمح ابن الأحمر إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه . ودمج ما تبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحَّدة تكون ملكاً له ولعقبه ، فصانع النصارى ، وتجنب الاشتباك معهم ، فشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه يفطر حزناً وأسى[1] ؟!؟

إن سير الأحداث يضع الاجابة أمامنا !!

---

(١) نهاية الاندلس ، صفحة : ٣٤ .

بدأ ابن الأحمر يواجه النصارى ، وبدأ يخرج عن طاعتهم ، وفاتحه النصارى بالعدوان بغزو أراضيه في سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م ، فردّهم بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدوة المغربية ، وهذا أول انتصار كبير منذ انهيار الموحدين .

وفي عام ٦٦٢ هـ استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن ادريس فتح مدينة شريش وتخليصها من يد النصارى[١] .

شدّد النصارى هجومهم بدءاً من عام ٦٦٣ هـ ، وبدأت الهزائم تتوالى على ابن الأحمر على يد « دون نوينو دي لارا » صهر ملك قشتالة ، فبايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس ، فبعث المستنصر لابن الأحمر هدية وعوناً ، ولكنها لم تجده نفعاً ، فسوء المصير لاح في الأفق ، فاضطر ابن الأحمر أن يهادن ملك قشتالة ثانية في أواخر سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م ، متنازلاً له عن أكثر من مائة موضع معظمها غربي الأندلس ، منها شريش والمدينة والقلعة[٢] ...

وبذلك أصبحت مملكة غرناطة رقعة صغيرة متواضعة في الجنوب الشرقي من الأندلس[٣] ، بينما كانت تشغل نصف الجزيرة الاسبانية قبل قرن فقط .

وفي هذه الآونة ثار على ابن الأحمر أحد أصهاره في مالقة

---

(١) الذخيرة السنية ، صفحة : ١٢٢ .
(٢) الذخيرة السنية ، صفحة : ١٢٧ .
(٣) راجع المصوّرين ص : ٣٤ و ص : ٣٥ .

وهو أبو محمد بن أشقيلولة ، فحاصره ابن الأحمر بمعونة الاسبان سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م ، ثم سار إليه ثانية ، ولكنه لم ينل منه مأرباً[1] .

وفي عام ٦٦٨ هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة ، فبدأ تحرك نصراني باتجاه مملكة غَرْناطة ، وعاث ملك قشتالة بالجزيرة الخضراء خراباً ، فطلب ابن الاحمر العون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني ، ولكنه مات قبل أن يرى ماحدث ، وذلك في ٢٩ جمادى الثانية ٦٧١ هـ (كانون الأول « ديسمبر » ١٢٧٢ م) ، وقد قارب الثمانين من عمره ، بعد أن وطّد الملك لبني نصر الذي بقي زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى[2] .



(١) الذخيرة السنية ، صفحة : ١٢٥/١٢٩ .

(٢) ابن خلدون ، جـ : ٧ ، ص : ١٩٠ لمعرفة صفات ابن الاحمر ، الذي سمي بهذا الاسم بسبب نضارة وجهه ، واحمرار شعره .

المحيط الأطلسي
البرتغال
ليون
قشتالة
نافار
أراغون
فرنسة
البحر المتوسط
مضيق جبل طارق
وهران
الجزائر
تلمسان
مملكة تلمسان
مملكة بني مرين
سلا
فاس
مراكش

موقع مملكة غرناطة
القسم المخطط في أقصى الزاوية
الجنوبية الشرقية من اسبانية

"مملكة غرناطة"

نهر وادي يانة
مادرة
بطليوس
يابرة
باجة
كورة الغرب
المعدن
جبال الشارات "سييرا مورينا"
قرطبة
أندوجار
بياسة
نهر الوادي الكبير
أرجونة
جيان
أجبيلد
قبرة
اليسانة
لوشة
مرسية
لورقة
بسطة
غرناطة
وادي آش
الحمراء
قرطاجنة الحلفاء
طلبيرة
لبلة
شلطيش
قرمونة
استجة
اشبيلية
انتقيرة
وادي لكة
شريش
رندة
الحامة
جبال سييرا نيفادا
البشرات
المرية
المنكب
بش
مالقة
ماربلة
قادش
شذونة
طريف
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
مضيق جبل طارق
بحر الزقاق
البحر المتوسط
سبتة
تطوان
طنجة
العرائش
عدوة المغرب
سلا
فاس
مراكش
مليلة
وهران
تلمسان
بلاد المغرب

المرينيّون يُنجدون غرناطة

★ الغزاة الدونونية : لقاء سريع مع الاسبان ، كان النصر فيها عظيما للمسلمين بقيادة أبي يوسف ، فأعاد الى الأذهان ذكريات الزلاقة أيام المرابطين ، والارك أيام الموحدين .

تولى الحكم في مملكة غرناطة بعد مؤسسها ابنه أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف . الذي ولد سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م، فنظم الدولة ، وأقام الدواوين ، واتصف بخلال حسنة من القوة والعزم وبُعْدِ الهمة ، وسعة الأفق ، مع علم وأدب، وكان شاعراً فقيهاً ، حتى أنه دعي باسم « محمد الفقيه » ، وفي أول عهده نشط ألفونسو العاشر في مهاجمة غرناطة ، فاتجهت أنظاره وأنظار المسلمين جميعاً في الأندلس الى الدولة المسلمة الفتية التي قامت في المغرب الأقصى، إلى دولة بني مَرِين ، التي شاء لها الله عز وجل أن تلعب الدور الذي لعبه المرابطون والموحّدون من قبل ، فكان للمرينيين أثر عميق في مجريات الأمور في الأندلس ، علماً أن بني الأحمر أنفسهم لم يفتهم ضرورة التحالف مع المرينيين ، فكانوا

يطلبون الغوث والنجدة والمدد عند الحاجة ، ففي عام ٦٧٠ هـ كان صريخ أبي عبد الله محمد الفقيه لأبي يوسف سلطان المرينيين برسالة هذا نصها[١] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم . إلى الملك المؤيد بفضل الله العادل الهمام ، ذي الشيم المحمودة والاهتمام أمير المسلمين ، وناصر الدين ، المجتهد في إقامة دعوة الحق أبي يوسف بن عبد الحق ، نوّر الله تعالى به الآفاق ، وجمّل ببهائه الجيوش والرِفاق ، من وليّه ومحبّه في الله تعالى ، المستجير برحمة الله تعالى وعونه ، والمبتهل له بالدعاء في ائتلاف كلمة الإسلام وصلاح شأنه ، محمد بن محمد بن يوسف ابن الأحمر بن نصر ، سلام عليكم ، على حضرته العلية ورحمة الله وبركاته ، أما بعد .. فإن الله تعالى أيّد دينه بالاتفاق والائتلاف ، وحرّم مسالك الشتات والاختلاف ، وأنعم على عباده بدولتكم السَّنيَّة ، واظهار جنودكم المرينية الذين هم في حرب الأعادي أولو بأس شديد :

مَرِين جنود الله أكبر عُصْبة ... فهم في بني أعصارهم كالمواسم
مُشَنَّفة أسماعهم لمدائحٍ ... مسوَّرة أيمانهم بالصوارمِ

تطوّل علينا بمعلوم حدّك ، ومشهود جدّك ، وقد جعلك

(١) النص في « الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية » ، صفحة : ١٦٠ وما بعدها . وأبو يوسف المريني هو سمي السلطان الموحدي الذي قاد معركة الارك « يعقوب المنصور » ابن عبد الحق .

الله رحمة تحيي عيشها بجيوشك السريعة ، وخلفك سُلَّماً إلى الخير وذريعة ، فقد تطاول العدو النصراني على الإسلام ، واهتضم جنابه كل الاهتضام ، وقد استخلص قواعدها ، ومزّق بلدانها ، وقتل رجالها ، وسبى ذراريها ونساءها وغنم أموالها ، وقد جاءنا بإبراقه وإرعاده ، وعَدَده وايعاده ، وطلب منا أن نسلم له ما بقي بأيدينا من المنابر والصوامع والمحاريب والجوامع ، ليقيم بها الصلبان ، ويثبت بها الأقسّة والرهبان ، وقد وطّأ الله لك ملكاً عظيماً ، شكرك الله على جهادك في سبيله ، وقيامك بحقه ، واجهادك في نصر دينه وتكميله ، ولديك من نية الخير ، فابعث باعث بعثك الى نصر مناره ، واقتباس نوره ، وعندك من جنود الله ما يشتري الجنات بنفسه ، ويحضر الحرب باماته ، فإن شئت الدنيا فالأندلس قطوفها دانية ، وجنّاتها عالية ، وإن أردت الآخرة بها جهاد لا يفتر ، وهذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واحتمال معروفكم ، ونحن نستعين بالله العظيم وبملائكته المسوّمين ، ثم بكم على الكافرين ، فقد قال تعالى ، وهو أصدق القائلين : « قاتِلوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بأيديكُم ويُخْزِهِم وينصركم عليهم ويَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مؤمنين[1] » .

والله تعالى يجمعنا على كلمة التوحيد ينصرها ، ونعمة الإسلام بالملك يشكرها ، ورحمة الله نتحدّث وننشرها والسلام الموصول المبارك على أمير المسلمين ورحمة الله وبركاته » .

---

(١) سورة التوبة ، الآية الكريمة : ١٥ .

فلما وصله هذا الكتاب وجده عازماً على الجهاد والرباط ، وقوى العزم ، وحرص على الغزو والجهاد ، ثم تتابعت عليه الرسل من ابن الأحمر وابن اشقيلولة يقولون له : يا أمير المؤمنين ، أنت مليك الزمان ، والمنظور إليه في هذا الأوان ، وقد وجب عليك نصر المؤمنين ، وإغاثة المسلمين ، وجهاد أعداء الله الكافرين ، فإن لم تنصر الإسلام فمن ينصره ؟! وإن لم تتدارك هذا الصقع الأندلسي فمن يعمره ؟!

وكان الشيخ أمير المسلمين ابن الأحمر ـ مؤسس ملكة غرناطة ـ قد أوصى ولده الأمير أبا عبد الله عند وفاته أن يستدعي أمير المسلمين أبا يوسف الى الجواز إلى الأندلس ، وأن يبذل له ما يريده من الحصون والبلاد ، وكتب بخط يده يستنصره ويستغيث به فيها ، وقال له : يا بُنَيَّ إذا أنا متّ ، ابعث بهذه والبراءة إلى ملك العدوة أمير المسلمين أبي يوسف وادْعُه للجواز والجهاد ، فإنه ناصر هذه البلاد ، فبعث له ابن الأحمر البراءة التي كتب له والده عند وفاته ، فلبَّى أمير المسلمين دعوتهم وأجاب استغاثتهم واستنصارهم ، وكتب إليهم جواب كتاب استنصارهم، رسالة من بعض فصولها :

« شكواكم رحمكم الله وأعانكم وأيدكم بتأييده ونصركم عندنا من احتراق القلوب ، ألم أوارى نصركم بوجد ونار لا يطفئه إلا من يناسب دعاء العداة يوم تجوس خلالها الأبطال من الحُماة والكُماة ، وعزم لا يناله إلا التمشّع في دار العدا بالنهب والقتل ،

وليس إلا نشيد العزم وتأسيسه ، وباحته بالقلوب وتعريسه ، حتى يصد إلى حدرته فنجرّعه من الموت كؤوس ، ونرفل من الغـزو شموس ، ونـجالده في عزّ داره ، تنمو بذلك دار المقاومة يوم التناد ، والفوز يوم المعاد ، وإنّا لنرجو أن نصلكم بنفوس صلح جهرها وسرّها ، ونسقي بماء الثلج واليقين غرها ، ونقدم عليكم بما يبسط نفوسكم ويسرّها ، ويطلع لهـا الفرح من المكاره ويذهب عسْرَها ، فَلْتَطِبْ نفوسكم برحمة الله وعونه ، ولْتَفْرحوا بفضل الله وصونه ، ونحن قادمون عليكم في اثـر هذا إن شاء الله ووعدنا بوفاء يعين الله على أعدائه ، ونَفِدُ عليكم بأنصار الدين وأودّائه ، وصحبتنا قوم باعوا أنفسهم من العزيز الوهّاب بجزيل المواهب ، يعملون في مرضاته الأسنّة والسيوف القواضب ، ويصبون على الكفار العـذاب الواصب ، يركبون إليكم ثبج هذا البحر الأخضر عازمين على الجهاد ، لا ظلّ لهم في الهواجر إلا ظل القنا وورود الثماد ، عند انصرام شهر المحرم من سنة أربع وسبعين وستمائة نجوز إليكم وذلك أوان ظهور النبات، واهتزاز الأرض بالخيرات ، فأعدّوا للقاء ، كما نُعدّ واستعدوا على القتال ، وتوكل على الله حيثما تستعدّ لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، واعلموا أنه لا تأثير للعبـد إلا بالله ، وإياكم وايانا من الاعجاب بالكثرة ، والعَدَد فإن الله تعالى يقول : « ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئاً »(١) ، والله يعيننا وإياكم،

---

(١) سورة التوبة ، الآية الكريمة : ٢٦ .

ويحسن محيانا ومحياكم ، والسلام عليكم »[1] .

ولما وصل كتاب أمير المسلمين إلى ابن الأحمر وقرأه سُرَّ به .

وتوالت الكتب على أبي يوسف من ابن الأحمر « محمد الفقيه » ومن ابن اشقيلولة ، يستنصرون به ويستدعونه إلى الجواز والجهاد ، فخرج أبو يوسف من مدينة فاس ملبِّياً دعوتهم ، وقاصداً نصرتهم ، في النصف من شهر رمضان المعظم سنة ٦٧٣ هـ . فسار حتى نزل مدينة طنجة ، فكتب منها إلى الفقيه أبي القاسم العزفي صاحب سبتة يأمره بعمارة الأجفان[2] الغزواتية لتجويز المسلمين المجاهدين ، ثم دعا ولده أبا زيان فعقد له على جيش من خمسة آلاف فارس من أنجاد مَرِين ، وأعطاه طبولاً وبنوداً ومالاً وعُدَداً وَجَهَّز بكل ما يحتاج إليه ، ثم عقد له رايته المنصورة ليقدِّمها بين يديه ، وأوصاه بتقوى الله تعالى في سرِّه وجهره ، ودعا له ووجَّهه ، وانصرف الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز ، فوجد الفقيه أبا القاسم العزفي قد اتخذ له هنالك عشرين حَفْناً بخزاتها ورُماتها وعُدَدها ميسَّرة لتجويز المجاهدين ، فركب الأمير أبو زيان البحر هو وجميع جيوشه من قصر المجاز ، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس ، وكان جوازه في ١٧ ذي الحجة ٦٧٣ هـ[3] ، فأقام الأمير

---

(١) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، صفحة : ١٦٢/١٦٣ .

(٢) أي ببناء السفن .

(٣) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، صفحة : ١٦٤ .

أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر ، ثم خرج منها الى الجزيرة الخضراء فغنمها وواصل السير في بلاد العدو حتى وصل إلى شريش ، وهو يغنم ويفتح ما مرّ عليه من القرى والحصون والبروج .. ولم يقدر أحد من الإسبان أن يخرج إليه ولا يصدّه عن قصده ، ثم قفل بالغنائم إلى الجزيرة فدخلها ، ففرح أهلها بقدومه ، وقويت معنوياتهم ، وهكذا استطاع الأمير أبو زيان ـ حامل راية والده المنصورة ـ أن يعز الإسلام، ويذل الاسبان في الأندلس .

كانت غـزوة أبي زيان غـزوة ريادة واستطلاع ، فقـرر أبو يوسف العبور بنفسـه مع جيشـه جيش مَرِين ، فبعث أبو يوسف حفيده تاشفين بن الأمير أبي مالك إلى يغمراسن بن زيان أمير تلمسان يطلبه في الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجوز إلى الأندلس وهو مطمئن على بلاده آمن عليها ، فأسعفه يغمراسن بمطلبه ، فتم الصلح بفضل الله بينهما ، وجمع الله كلمة الإسلام ، وألّف بين المسلمين ، وأبعد عنهم التحاسد والتنافس والاقتتال .

سر أمير المسلمين أبو يوسف بذلك سروراً عظيماً ، وأخرج الصدقات ، وكتب إلى أشياخ بني مرين ، وأمراء العرب ورؤساء قبائل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمـارة وجاناته يستنفرهم إلى الجهاد ، ثم ارتحل إلى قصر المجاز أول المحـرم الحرام سنة ٦٧٤ هـ ، وأخذ في تجويز المجاهدين إلى الأندلس

بالخيل العتاق ، والعُدّة الكاملة والسلاح ، فكان يجوّز في كل يوم قبيلة من بني مرين وطوائف من المطوّعين وقبائل العرب .

فلما فرغ من تجويز بني مرين والعرب أخذ في تجويزأجناده، فكان الناس يجوزون فوجاً بعد فوج ، وقبيلة بعد قبيلة ، فكانت السفن والمراكب غاديات ورائحات آناء الليل وأطراف النهار ، من قصر المجاز إلى طريف يزدحمون في ذلك المعبر :

فالمرسلات تسوق العاديات إلى
غزو العداة وتجويز صباحَ مَسَا
كأنما البحر أضحى للجياد مَدىً
وكل عُشْبة ماء حَوّلت فَرَسا
كأنما اقترب البرّان واتصلا
فصار ذاك طريقاً للورى يَبِسا

فلما تكامل الناس بالجواز واستقرّوا ببلاد الأندلس ، وانتشرت عساكر المسلمين بها من مدينة طريف إلى الجزيرة الخضراء ، جاز أمير المسلمين أبو يوسف في آخرهم في خاصته ووزرائه وخُدّام دولته ، ومعه جماعة من صلحاء المغرب ، وكان جوازه يوم الخميس ٢١ صفر ٦٧٤ هـ . وفي الأندلس تلقاه ابن الأحمر والرؤساء من بني اشقيلولة بعساكرهما ، واهتزت الأندلس فرحاً بجوازه .

وكان بين ابن الأحمر « محمد الفقيه » وبين اشقيلولة منافسة ومخاصمة وشحناء ، فأزالها أبو يوسف وأصلح بينهما ،

فتآلفت القلوب على التقوى والجهاد ، وتفاوضوا فيما يصلح المسلمين وكيف يكون وجه العمل في جهاد الإسبان ، فأقاموا معاً ثلاثة أيام ، وانصرف ابن الأحمر إلى غَرْناطة غير راضٍ[1] ، وسار بنو أشقيلولة إلى مالقة ، وارتحل أبو يوسف أمير المرينيين مع خاصته ووزرائه وصلحاء المغرب وجميع جيوش المجاهدين من العرب وبني مرين قاصداً جهاد النصارى ، لم يقعد ، ولم يبال أو يكترث بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلّف ، ولم تستطب جفونه مناماً ، ولم يلتذ شراباً ولا طعاما ، ولم يزل يجد الرحيل ، ويوالي المسير ، حتى وصل إلى الوادي الكبير ، فعقد هنالك لولده الأمير أبي يعقوب يوسف على مقدّمتهِ وقدّمه بين يديه مع الأدلاء في جيش من خمسة آلاف فارس من أنجاد بني مرين والعرب ، وأعطاه الطبول والبنود ، فتقدم والدَهُ بمرحلة ، وسار أبو يوسف في أثر ابنه في جميع جيوشه ، فانتشرت عساكر المجاهدين في أرض الإسبان ، ووصل إلى حصن المقورة مابين قرطبة واشبيلية ، ودخل حصن « بلمه » عنوة بالسيف ، ثم سار إلى أحواز قرطبة ثم إلى إستجه .

وفي هذه الأثناء أخبر بدوي من أهل الأندلس أمير المسلمين أبا يوسف أن النصارى قد جمعوا له وخرجوا في أثره في جيش عظيم ، وجنود كثيرة لا يحصى عددها ، كأنها السيول الطامية ،

---

(١) كان ابن الاحمر ينظر بعين الجزع والتوجس من عبور المرينيين في أغلب الاحيان ، وتوقع أسوأ العواقب من تدخلهم في الاندلس ، ولكنه ينظر الى الخطر النصراني القادم من قشتالة فيؤثر التفاهم مع المرينيين المسلمين مهما كانت العواقب .

فتأهّب للقائهم ولقدوم « دونونة[1] » كبير النصرانية وزعيمها إلى حربه بجميع الروم وحشودها في ثلاثين ألف فارس ، وستين ألف راجل يريدون ما بأيدي المسلمين من غنائم ، ويريدون هزيمة جيش الإسلام .

عقد أمير المسلمين أبو يوسف مجلس شورى من أشياخ قبائل مرين وأمراء العرب وقادة الأندلس ومن في عسكره من الفقهاء والعلماء ، ليشاورهم كيف يكون العمل في لقاء العدو المقبل إليهم .

وسمع أبو يوسف آراء الجميع ، وأخذ أجودها ، وأمرهم بالاستعداد للقاء العدو ، والصبر والثبات عند اللقاء ، وبينما هم كذلك إذ نظر الناس إلى طلائع النصارى قد أقبلت نحوهم على بُعْدٍ ، والرجال أمام الخيل ودونونه في وسط الجيوش ، وكان ألفونسو حزمه بيده ، وزوجه ابنته، وفوّضه على جيوشه وحروبه، وفوّض إليه الأمر في جميع بلاده وجنوده ، وكان النصارى قد سعدوا به لأنه كان لم ينهزم قط ، وكان وبالاً على بلاد الإسلام، شديد الوطأة عليها ، قد فتح أكثرها ، لا يفتر عن القتال والحرق والتخريب والسَّبي في كل الأوقات ، فأقبل تحت ظلال البنود والأبواق تخفق على رأسه في جيش قد ملأ الأرض يموج كأنه

(١) في الذخيرة السنية .. ص : ١٦٩ ، وهو في « نهاية الاندلس » : الدون نونيو دي لارا أو : دونونة ، أو دننه ، أو ذنونة . راجع ص : ٨٤ . وراجع التاريخ الاندلسي صفحة : ٥٣٦ وما بعدها ، وهو في نفح الطيب ، ج : ٦ ، ص : ١١٩ باسم : « ذونته » وفي هامشها : « دويقة ، أو ذوننذ » .

الجراد ، والرجال والرماة أمام الجيش كلهم قد شرعوا الحراب معتمدين على الكثرة ووفرة العَدد .

أمر أمير المسلمين أبو يوسف بالغنائم فبعث بها مع ألف فارس وألف راجل من المجاهدين المطوعين إلى الجنوب بعيداً عن أرض المعركة[1] ، وتأخَّر هو ومن بقي معه من المسلمين مستعدين لقتال النصارى ، ثم ترجَّل عن جواده فأسبغ وضوءه ، وصلى ركعتين ، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء ، والمسلمون يؤمِّنون على دعائه ، فكان في آخر دعائه ما دعا به النبي ﷺ يوم بدر للصحابة : « اللهم انصر هذه العصابة وأيِّدها وأعنها على جهاد عدوِّك وعدوِّها »[2] ، كل ذلك بخشوع كامل ، وتضرع وابتهال كاملين ، فلما فرغ من دعائه قام فاستوى على جواده ، واستعد للقتال ، وعقد لولده الأمير أبي يعقوب على مقدِّمته ، ونادى المسلمين فقال :

« يا معشر المسلمين وعصابة المجاهدين ، أنتم أنصار الدين الذّابُّون عن حِمَاه ، والمقاتلون عِداه ، وهذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم له ما بعده ، ألا وإنَّ الجنة قد فُتحت لكم أبوابها،

---

(١) وهذا يذكرنا بمعركة « بلاط الشهداء » فلم يحسن المسلمون قبلها ببعثهم الغنائم لتودع اربونة او برشلونة حتى يطمئنوا عليها وتخلو أيديهم للعمل المقبل ، وينتهي اشتغال فكرهم بها . لقد أحسن المرينيون في استفادتهم من اخطاء المسلمين السابقة فتفادوها .

(٢) نص قول النبي ﷺ كما جاء في كتب السيرة حرفيا : « اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » ، راجع سيرة ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٩٦ ، والسيرة الحلبية ، ج : ٢ ، ص : ١٧٣ .

وزُيِّنت حورها وأترابها فبادروا إليها ، وجدّوا في طِلابها ، وابذلوا النفوس في أثمانها ، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف ، وإنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فاغتنموا هذه التجارة الرابحة ، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة ، وشَمِّروا عن ساعة الجد في جهاد أعداء الله الكفرة ، وقتال المشركين الفجرة ، فمن مات منكم مات شهيداً ، ومن عاش رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً ، « فاصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »[1] .

فلما سمع الناس منه هذه المقالة ، تاقت أنفسهم للشهادة ، وعانق بعضهم بعضاً للوداع ، والدموع تنسكب ، والقلوب لها وجيب وانصداع ، وكلهم قد طابت أنفسهم على الموت ، وباعوها من ربهم بالجنة قبل الفوت ، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير ، وكلهم يقول :

« **عباد الله إياكم والتقصير** » ، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الإسبان معتمدة على بارئها الحيّ القيوم . فالتقى الجمعان، والتحم القتال ، واشتد النزال ، وعظمت الأهوال ، وقسّم « دونونة » جيوشه الى خمسة أجزاء ، ليظهروا جموعاً متكاثرة ، فكانت تقبل بجموعها ، فيدفعهم المسلمون ، وتتلقاهم سيوف المجاهدين وحرابهم ، وقلوب المجاهدين المسلمين صابرة وفيّة صادقة .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية الكريمة : ٢٠٠ .

ودار بالإسبان فرسان المجاهدين من العرب وبني مرين ، يحكمون في رقابهم السيوف ، فقُتِل زعيم الإسبان « دونونة »، كما قتل ولده ، وَهُزِم جيشه وتكسَّرت أعلامه .

جاء في الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية : « وانجز الله تعالى وعده لعباده المؤمنين ، وأيدهم بملائكته المسوَّمين ، ونصر دينه على أعدائه الكافرين ، واستأصلهم المسلمون بالقتل فلم يكن إلا كلمح البصر ، حتى لم يُبْقِ السيفُ من الروم ـ الإسبان ـ من يرجع لقومه بالخبر ، ولم تبقِ الرماحُ منهم باقية ، ولم تفِ الدروع والمِجَنّ عنهم واقية ، وقطع رأس اللعين في الحين ، وتكسَّرت أعلامه ، ونهبت عساكره »[1] .

والرواية السابقة بالرغم من مبالغتها ، تعطي فكرة طيبة عن انتصار المسلمين الساحق ، وانكسار النصارى المريع . وتابعت الرواية قولها ـ مبالغة ـ : « قطعت رؤوس الروم فكانت أكثر من ثمانية عشر ألف رأس ، وَصُنِع منها هرم" صعد المؤذنون عليه ، فأذّنوا بصلاة العصر ، ولما سلم أمير المسلمين ، نظر من استشهد من جنده ممن سبقت لهم الشهادة ، فوجد ستة نفر من مرين ، وسبعة من العرب ، وثلاثة من الأندلس ، وثمانية من المطوعين ، فكان جملتهم أربعة وعشرين رجلاً ، فأمر المسلمين بدفنهم ومُواراتهم ، وحمد الله وأطال شكره »[2]، وكان ذلك يوم

---

(١) الذخيرة السنية .. ص : ١٧٢/١٧٣ .

(٢) الذخيرة السنية .. صفحة : ١٧٤ .

السبت ٢٥ ربيع الأول ٦٧٤ هـ / ٩ أيلول « سبتمبر » ١٢٧٥ م •
وكان اللقاء على مقربة من استجة •

* ويمكن أن نلاحظ مقدرة أبي يوسف القيادية في النقاط التالية :

١ً ــ بتأمين عنصر الاستطلاع بعقده لولده أبي يعقوب واعطائه الأدلاء مع خمسة آلاف فارس من الأنجاد ، فتقدم والده بمرحلة يرتاد له المناطق ، وسار أبو يوسف في أثره في بقية الجيش •

٢ً ــ وبارساله الغنائم قبل المعركة ، وهذا عمل حكيم ، يعيد إلى أذهاننا خطأ « بلاط الشهداء » فقد تحاشى أبو يوسف الخطأ مستفيداً من عبر التاريخ الماضية ، لقد جعلها بعيدة عن أرض المعركة لتخلو أيدي المجاهدين للمعركة ، ولينتهي شغلهم بها •

٣ً ــ خطبته قبل المعركة كان لها أثرها في رفع الروح المعنوية عند المجاهدين المسلمين ، فجاهدوا صابرين محتسبين ، طالبين للشهادة ، على الرغم من أن عدوهم أقبل عليهم بقوة وأمل وبقيادة مجرّبة مهرت في الحرب وخططها ، وما عرفت الهزيمة قبل ذلك •

٤ً ــ وكانت مقدّمات المعركة صورة شبيهة بما جرى في معركة الأرك ، لقد باشر الأمير المريني في هذه المعركة القتال بنفسه ، وقتل عدداً من الاسبان بيده ، وهذا يذكرنا بيوسف بن تاشفين ، ويعقوب المنصور الموحّدي ، اللذين صنعا نصر الزلاقة ونصر الأرك العظيمين •

* أرسل أبو يوسف أعلام النصارى المنكّسة إلى أعلى منار « القرويين »[1] ، ومنار جامع الكتبيين بمراكش ليعاينهـا المسلمون . وعاد هو إلى الجزيرة الخضراء ، ومنها أرسل برأس « دونونة » إلى ابن الأحمر إلى غرْناطة ، فلما وصل الرأس إلى ابن الأحمر محمد الفقيه ، صَبَّرَه وجعله في المسك والكافور ، وبعث به إلى الفنش (ألفونسو العاشر)[2] تقرباً منه ، وتحبباً واستئلافاً إليه .

وكتب الفقيه أبو القاسم العزقي إلى فقهاء المغرب وصلحائه يشرح هذه الغزاة[3] ، وأبو يوسف مقيم بالجزيرة الخضراء ، بقي ربيع الأول وربيع الثاني ، فورد عليه في هذه الأيام كتاب عامله على حاضرته مراكش وأعمالها ، يبارك النصر ويهنىء به ، ويخبره بأنه فتح له مدينة تينمل ، أسّ ملك الموحّدين ، وذلك في آخر ربيع الثاني ٦٧٤ هـ .

وفي شهر ربيع المذكور ورد عليه كتاب صاحب افريقية ، وكتاب من ابن الأحمر فيه مجاملة وتهنئة ، وكتاب من ابن اشقيلولة وفيه قصيدة من أبياتها[4] :

---

(١) جامع القرويين بمدينة فاس .

(٢) ودونونه هو صهر ملك قشتالة الفونسو العاشر كما مر معنا .

(٣) كتاب الفقيه ابو القاسم العزقي ، كتاب مطول ، يمكن مراجعته في « الذخيرة السنية » من ص : ١٧٥ وحتى ص : ١٨١ .

(٤) تقع القصيدة في ثمانية وعشرين بيتا ، راجع « الذخيرة السنية » ، صفحة : ١٨٢/١٨٣ .

هَبَّت بنصركُمُ الريــاحُ الأربَعُ
وسَرَت بسعدكُمُ النجومُ الطلَّعُ
وأتت لنصـــركم الملائِكُ سُبَّقاً
حتى أضاق بهــا الفضــاء الأوسعُ
واستبشـر الفَلَكُ الأثـيرُ تيقُّنـاً
أن الأمــور إلى مــرادك ترْجعُ
وأمــدّك الرحمن بالفتــح الــذي
مــلأَ البسيطةَ نورُه المتشعْشعُ
لِمْ لا ؟ وأنْتَ بذلت في مرضــاته
نفساً تُفَدّيها الخلائقُ أجمــعُ
وأتيتَ تنصــر دينَــهُ متــوكّلاً
بعزيمــةٍ كالسَّيفِ بــل هي أقطَعُ
أين المفــر ولا فــرار لهــاربٍ
والأرض تُنْشَرُ في يديك وتُجْمَعُ
فلقــد كسوتَ الدين عزّاً شامخاً
ولبستَ منــه أنْتَ مالا يُخْلَعُ
إن قيــل مَنْ خيرُ الملوك بأسرهــا
فإليك يا يعقــوبُ تومي الأصبَعُ

* * *

الغزاة الثانية :

أقام أبو يوسف في الجزيرة الخضراء خمسة وثلاثين يوماً ،

فاستراح الناس ، ثم خرج إلى الغزاة الثانية أول يوم من جمادى الأولى من سنة ٦٧٤ هـ ، فوصل اشبيلية ، فنزل بظاهرها ، ثم ارتحل إلى شريش وحاصرها ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع قدم عليه رهبان النصارى يرغبون منه أن يكف عنهم القتال حتى يبعثوا إلى ملكهم ، فكفّ عنهم وارتحل إلى الجزيرة الخضراء ، فوصلها في ٢٧ جمادى الأولى .

ودخل فصل الشتاء ، فبقي طول زمان الشتاء كله مرابطاً في الجزيرة ، محترساً ثغور المسلمين ، يبعث الجيوش والسرايا فتغير على الإسبان وتعود غانمة ظافرة ، حتى أضعفت هذه السرايا بلاد الإسبان . فلما علم بذلك جاز إلى المغرب تاركاً في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس من بني مرين والعرب ، وأمرهم بالإغارة على بلاد الإسبان في كل وقت وحين ، وكان جواز أبي يوسف آخر أيام رجب من سنة ٦٧٤ هـ ، وكانت مدة اقامته في الأندلس خمسة أشهر[١] .

عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ، وتوغّل بجيشه في أراضي قشتالة ، والتقى بابن الأحمر ، ثم عاد أبو يوسف إلى المغرب ، وكان ابنا لأحمر

---

(١) سار أبو يوسف يعقوب من الجزيرة الخضراء الى سبته الى طنجة الى فاس. وفي جبل أزرو تمنع وخرج عليه طلحة بن محلى البطوئي ، فحاصره أمير المسلمين أبو يوسف ثلاثة أيام ، فرأى طلحة مالا قبل له به ولا طاقة له عليه ، فأناب الى الطاعة ، وطلب الامان ، فعفا عنه أبو يوسف ، وسمح له بالتوجه الى المشرق وأداء فريضة الحج ، فأعانه وصرفه لما أراد ووصله بمال وخيل وابل . وفي هذه السنة ٦٧٤ هـ بدأ بناء المدينة البيضاء على وادي فاس وبالتحديد يوم الاحد ٣ شوال .

يتوجّس من السلطان المريني ، فتصرّف تصرفاً شاذاً حيث تحالف مع ملك قشتالة[1] ، الذي استطاع أن يكسب ابن الأحمر إلى جانبه ، فسارا إلى أقصى الجنوب لاحتلال « طريف » مدخل الأندلس كلها ، واشترط ابن الأحمر على ملك قشتالة[2] أن يسلمه ثغر « طريف » .

واستطاعت « طريف » أن تصمد أربعة أشهر ، ولكنها اضطرت إلى الاستسلام ، فطالب بها ابن الأحمر ملك قشتالة فأبى ، وأعرض عنه ، مع أنه تنازل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة . فأدرك ملك غرناطة محمد الفقيه ابن الأحمر عندئذ خطأه في الركون إلى وعود ملك قشتالة ، وفي مغاضبة المرينيين حلفائه الطبيعيين ، وسنده المخلص في رد عدوان النصارى ، فعاد يخطب ودّهم .

أرسل محمد بن محمد بن الأحمر — أو محمد الفقيه — أبا سعيد فرح بن اسماعيل ووزيره أبا عزيز الداني على رأس وفد من كبراء الأندلس إلى السلطان أبي يوسف لتجديد العهد والاعتذار عن مسلكه في شأن طريف ، فأجابهم إلى طلب الصلح ، وبقي على عهده مع المرينيين حتى توفي — محمد الفقيه — في شعبان سنة ٧٠١ هـ / أيار « مايو » ١٣٠٢ م بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة[3] .

---

(١) التاريخ الأندلسي ، صفحة : ٥٣٨ .

(٢) خلع ملك قشتالة ألفونسو العاشر عام ٦٨٢ هـ ، وتوفي سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ، وخلفه ابنه شانجه الرابع حتى ٦٩٥ هـ .

(٣) نهاية الاندلس .. صفحة : ٨٤ .

ومما يذكر أن أبا يوسف المنصور أرسل ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول مريني ضخم في أوائل سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م ، وانتصر على الاسطول القشتالي وحرر الجزيرة الخضراء . ولما تم الصلح مع ابن الأحمر أصبحت مالقة قاعدة لبني مرين ومحطة لعبور جندهم الى الأندلس للجهاد .

عبر أبو يوسف المنصور ـ عبوره الرابع ـ في صفر سنة ٦٨٤ هـ إلى الأندلس ، وجاهد في البر والبحر ، وأرغم شانجه الرابع على طلب السلم ، فأرسل شانجة وفداً من الأحبار يفوض السلطان المريني ما يراه ، ووضعت شروط أهمها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس[1] .

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٥ م ، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس . وهذه لمحة عن حياته تغمده الله عز وجل برحمته :

★ أبو يوسف يعقوب المنصور المريني ابن عبد الحق :

كان رحمه الله صوّاماً قواماً ، دائم الذكر ، كثير الفكر ، لا يزال في أكثر نهاره ذاكراً ، وفي أكثر ليله قائماً يصلي ، وسبحته في يده لا يزايلها أكثر أوقاته ، مكرّماً للصلحاء ، كثير الرأفة والحنين على الضعفاء والمساكين ، متواضعاً في ذات الله تعالى لأهل الدين ، متوقفاً في سفك الدماء ، كريماً جواداً ، وكان مظفّراً منصور الراية ، ميمون النقيبة ، لم تهزم له راية قط ، ولم يكسر

---

(١) التاريخ الاندلسي ، صفحة : ٥٤١ .

له جيش ، ولم يغز قط عدواً إلا قهره ، ولا لقي جيشاً إلا هزمه ودمّره ، ولا قصد بلداً إلا فتحه .

« وحسبك من سعده أنه لم يزل يحارب ملوك الموحدين من بني عبد المؤمن ، ويجدّ في قتالهم إلى أن قطع دولتهم ، وصرم حبل إمارتهم ، واحتوى على ملكهم بعد أن قتل سلطانهم أمير المؤمنين الواثق بالله ادريس المدعو بأبي دبوس ، فدخل مرّاكش مالكاً لها يوم الأحد ٢ المحرم ٦٦٨ هـ ، وانقرضت دولة الموحّدين على يديه »[1] .

ولا يفوتنا أن نذكر ، أنه كان خطيباً يؤثر في نفوس جنده ، شجاعاً مقداما يبدأ الحرب بنفسه عليه رحمة من الله وبركات .

لقد كان من طراز يوسف بن تاشفين ، وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي ـ سَمِيّه ـ ، وهو الذي أسس المدينة البيضاء على وادي فاس[2] .

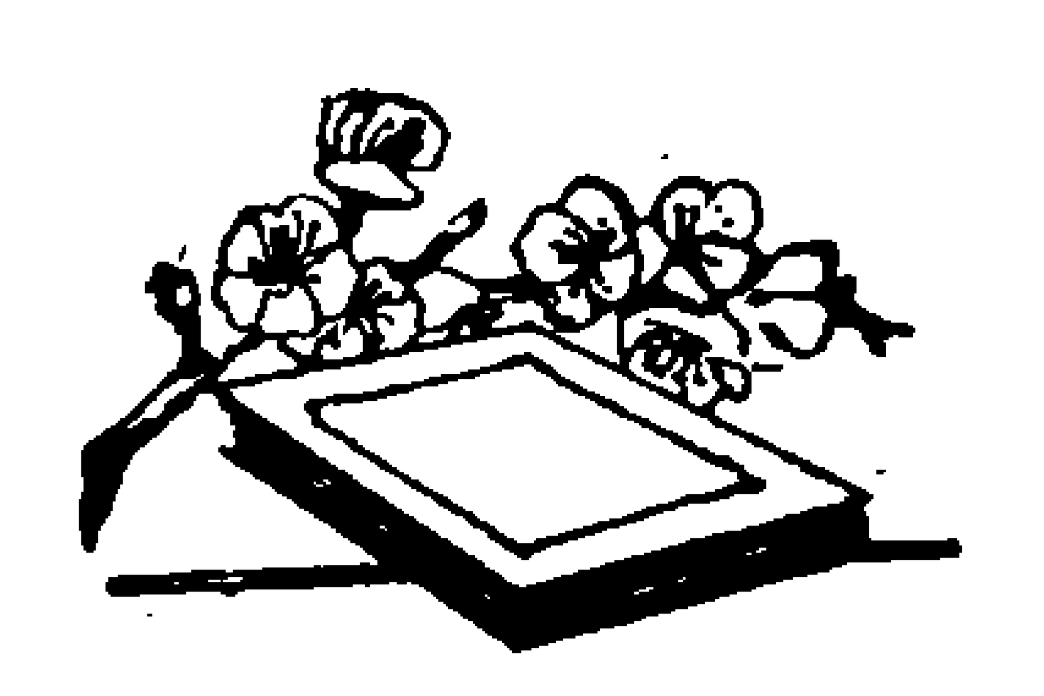
خلفه ابنه يوسف في صفر سنة ٦٨٥ هـ ، دام حكمه حتى سنة ٧٠٦ ، حيث توفي وله ٦٦ سنة . والذي كان له شأن في الجهاد في الأندلس إلى جانب إخوانه مسلمي غرناطة .

كان ابن الأحمر محمد الفقيه[3] ذا نشاط واضح في هذا

---

(١) روضة النسرين في دولة بني مرين ، صفحة : ١٤ .
(٢) روضة النسرين في دولة بني مرين ، ص : ١٥ ، والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، ص : ١٨٦ .
(٣) توفي محمد الفقيه ابن الاحمر سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م

الميدان ومهتماً به ، لكنه جنح أحياناً إلى المسلك الشاذ في مهادنة بعض ملوك إسبانيا النصرانية ضد آخر منهم ، بل ضد بني مَرِين[1] أحياناً .



(١) التاريخ الأندلسي ، ص : ٥٤١ .

مملكة غرناطة

من عام ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م
وحتى ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ م

★ « كانت شمس الأندلس تؤذن بالغروب ، وكانت تغرب في الواقع بخطى وئيدة ، ولكن مؤكدة »(١)

ساءت العلاقة بين بني الأحمر وبني مرين ، حتى إن بني الأحمر حرضوا أهالي سبتة على الثورة ضد المرينيين عام ٧٠٥ هـ / ١٣٠٦ م . كما تمخضّت الأندلس ذاتها عن ثورةٍ بدأت يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ / أوائل سنة ١٣٠٩ م.

كسب القشتاليون الظروف السيئة بين البلاطين في غرناطة وفاس ، فقرر فرديناند الرابع[٢] أن يستولي على جبل طارق ليمنع الامدادات عن الأندلس، فغزا الجزيرة الخضراء ، وحاصر بأسطوله

---

(١) القول للاستاذ محمد عبد الله عنان .

(٢) فِرْانْدُه (فِرْدِلَنْد) الرابع ، حكم قشتالة من (٦٩٥ ــ ٧١٢ هـ / ١٢٩٥ ــ ١٣١٢ م)

جبل طارق من البحر ، وأوعز إلى جايم ملك أراغون آن يشغل القوات الأندلسية بمحاصرته لثغر المرية . وبــدأ ذلك بالفعل في أوائل سنة ٧٠٩ هـ ، « وحفرَ النصارى في أسفل السور نفقــاً واسعاً لدخول المرية ، فلقيهم المسلمون تحت الأرض ، وردوهم بخسارة فادحة »[١] .

نجت المريّة ، وأرغم جبل طارق على التسليم في أواخــر ٧٠٩ هـ / آذار « مارس » ١٣١٠ م ، ولما كان باب الأندلس من الجنوب ، وصلة الوصل بين المسلمين في اسبانية والعدوة المغربية فقد ترك سقوطه أثراً سيئاً وعميقاً في نفوس المسلمين كافة ، في المغرب ، وفي المشرق . وهنا أدرك ملوك غرناطة[٢] خطأهم الفادح في مجافاة بني مرين[٣] ، فتنازلوا للمرينيين عن الجزيرة الخضراء ورُنْدَه توثيقاً لعرى التفاهم بينهما .

وفي عهد أبي الوليد اسماعيل بن الأحمر أعيد عهد الجهاد إلى الأندلس ، فهزم القشتاليين في وادي فرتونة سنة ٧١٦ هـ ، وردهم عن مشروعهم في احتــلال الجزيرة الخضــراء ، فقرّروا مهاجمة غرناطة ، فطلب أبو الوليد العون والامداد من المرينيين ، وكان سلطانهم حينئذ أبو سعيد ، فاشترطوا تسليم بعض الثــوار

---

(١) نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، صفحة : ٨٨ .

(٢) كان على عرش غرناطة في هذه الآونة ابو الجيوش نصر بن محمد الفقيه ابن الاحمر .

(٣) كان على عرش فاس السلطان المريني سليمان ابو الربيع .

الذين لجؤوا إلى غرناطة[1] ، فأبى ابن الأحمر في الوقت الذي زحف فيه القشتاليون بقيادة بيدرو « دون بُطْره » ، والدون خوان الوصيان على ألفونسو الحادي عشر ، فلقيهم المسلمون في هضبة إلبيرة على مقربة من غرناطة ، لقيهم الجندي الجريء عثمان بن أبي العلا ومعه ستة أو سبعة آلاف فقط ، فلم ترعه كثرة القشتاليين وأعدادهم التي ملأت الهضبة ، فردّهم بانتصار كبير في ٢٠ ربيع الثاني ٧١٨ هـ / أيار « مايو » ١٣١٨ م ، بعد أن مزّقهم شر ممزّق ، وقتل بيدرو « دون بطرة » والدون خوان ، وغرق عدد في نهر شنيل ، وأسر منهم بضعة آلاف ، واستمر القتل والأسر ثلاثة أيام .

شجع هذا الانتصار غرناطة ، فحاصرت بياسة سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م وفتحها المسلمون بعد أن أطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع[2] .

واشتد خطر القشتاليين في عهد أبي عبد الله محمد بن أبي الوليد اسماعيل بن الأحمر ، فعبر في أواخر سنة ٧٣٢ هـ إلى المغرب ، وقصد عاصمة المرينيين « فاس » مستنجداً السلطان أبا الحسن علي بن عثمان بن أبي يعقوب المريني . فاستجاب أبو الحسن ، وبعث الامدادات بقيادة ولده أبي مالك ، وقرر فتح جبل طارق واستعادته لاعادة صلة الوصل بين غرناطة والعدوة

---

(١) مثل عثمان بن أبي العلا ، الجندي الجرىء الشجاع ، الذي له جهاد مشهود ضد القشتاليين ، وسيستفحل أمره في الاندلس بعد حين .

(٢) راجع ص : ٧٢ ، حيث نموذج لهذه المدافع .

المغربية ، وتمكّن من استعادته سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م ، بعد ردّ النجدات النصرانية عنه •

ولي عرش غرناطة بعد أبي عبد الله محمد بن أبي الوليد اسماعيل أخوه أبو الحجاج يوسف ، وبالرغم من صغر سنه « ١٦ سنة فقط » ، فقد كان من أعظم ملوك بني نصر « بني الأحمر » ، وأبعدهم همة ، وأحسنهم خلالاً • فشتت شمل بني أبي العلا ، ونفاهم إلى تونس وأنهى تطاولهم في الأندلس ، وهذا العمل يرضي في الوقت ذاته أبا الحسن سلطان المرينيين ، فطلب منه أبو الحجاج العون لجهاد القشتاليين وملكهم ألفونسو الحادي عشر ، فأرسل أبو الحسن ابنه الأمير أبا مالك ، فعبر سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد • وسارت حملة صليبية باركها البابا على سفن قشتالة وأراغون والبرتغال إلى مياه جبل طارق بقيادة الدون « جوفري تنوريو » ، وكان هدف هذه الحملة البحرية المشتركة ايقاف الامدادات المرينية التي تجوز المضيق •

وسارت قوى إسبانية المتحدة للقاء المسلمين ، وتمكّن أبو الحسن من الجواز الى الأندلس في أوائل المحرم ٧٤١ هـ / تموز « يوليه » ١٣٤٠ م ، بأسطول بلغ ١٤٠ سفينة •

وقرب « طريف » ، وقرب الجزيرة الخضراء أيضاً ، التقى المسلمون بقيادة أبي الحسن المريني وأبي الحجاج ملك غرناطة بالقشتاليين في السابع من جمادى الأولى ٧٤١ هـ / ٣٠ تشرين

الأول « اكتوبر » ١٣٤٠ م ، وتكرّرت مأساة « العِقَاب » عندما تسللت حامية طريف النصرانية إلى مؤخرة جيش المسلمين[١] ، فدب الخلل إلى صفوفهم ، وسقط معسكر سلطان المغرب المريني في يد النصارى ، فَذُبِحَ جميعُ من فيه بوحشية ، وارتكب القشتاليون المنكرات في المعسكر الإسلامي وغنموا ما فيه ، وتحفظ كنيسة طُلَيْطُلة حتى اليوم بين ذخائرها ، علمين لبني مرين من هذه المعركة ، ولعلّهم خسروا فيها مصحف عثمان[٢] .

سميت هذه المعركة « وقعة طريف » ، وهي تذكّر بموقعة العِقَاب ، لقد استولى ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر على معسكر المسلمين ، وموضع سلطان المغرب وفيه النساء والأطفال، فذبحوا جميعاً بوحشية مُرَوِّعة[٣] .

وفي هذه المعركة استخدم المسلمون أسلحة تشبه المدافع ، مجهّزة بآلات قاذفة تسمى « الأنفاط »[٤] . وارتد السلطان أبو الحجاج إلى غرناطة واستولى النصارى على طريف والجزيرة الخضراء[٥] . وحاصروا جبل طارق عاماً كاملاً ، ورُفع الحصار بعد وفاة ألفونسو الحادي عشر بوباء عم المشرق والمغرب سنة

(١) راجع نهاية الأندلس .. ص : ٩٧ ، والتاريخ الأندلسي ، ص : ٥٤٤ .
(٢) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٦٠٦ .
(٣) ابن خلدون « العبر » ج : ٧ ، ص : ٥٤٦ .
(٤) التاريخ الاندلسي ، ص : ٥٤٤ (بتصرف) ، « راجع الصورة في صفحة ٧٢ ».
(٥) أرسل ابو الحسن بعد معركة طريف رسالة الى الملك الصالح بن الملك الناصر قلاوون بسط فيها ما جرى في حروبه مع النصارى ، ومثل هذه المراسلات السياسية كانت أيضا بين بلاط المرينيين وبلاط المماليك .

٧٤٩ هـ ـ ٧٥٠ هـ / ١٣٤٨ م • فأبدى المسلمون تسامحاً عظيماً عندما تركوا موكب الملك المتوفى يخترق طريقه إلى إشبيلية دون تدخل أو خطر ، ليخلفه ابنه بيدرو « أوبطرة » الملقب بالقاسي[1] •

وفي عـــام ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م توفي أبو الحسن سلطان المرينيين ، فبدأ بذلك عصر انحلال المرينيين ، وانحدرت دولتهم إلى حرب أهلية ، ففقدت غرناطة بذلك العضد الوحيد الذي كانت تَدّخره لوقت الشدائد ، وتُرِكت غَرْناطة لمصيرها ، وانقطعت الجيوش المغربية عن العبور إلى الأندلس للجهاد ، فلم تعبر إلا مرة واحدة لمعاونة الخَوارج في جبل طارق ضد ملك غَرْناطة[2]، وكان يواسي غرناطة في هــذه الآونة اختلافُ كلــمة النصارى الإسبان ، وانشغالهم بذلك الخــلاف عن محاربــة المسلمين في غرناطة •

وقتل أبو الحجاج يوسف وهو في السابعــة والثلاثين من عمره ، سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م • من قبل مخبول لم يفصح عن بواعثه وأغراضه ، فخلفه ابنه محمد الملقب بالغني بالله ، وكان حدثاً يافعاً وكان من كُتّابه لسان الدين بن الخطيب[3] ، الذي

---

(١) زار الاندلس بعد هذا التاريخ بقليل الرحالة الشهير ابن بطوطة الطنجي •

(٢) نهاية الاندلس ، ص : ١٠٢ •

(٣) مولده في لوشة من اعمال غرناطة سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م ، وبعد مشاركته في الحكم غادر الى المغرب ، ورمي بالزندقة بتحريض من بلاط غرناطة ، فقتل في سجنه اواخر عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م •

توثقت العلاقة بينه وبين المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون ، الذي وفد في سفارة إلى قشتالة[1] .

وفي عهد الغني بالله توثقت أواصر الصداقة بين غرناطة والقاهرة ، فأرسل لمعاصره سلطان مصر الأشرف شعبان رسالة أوضح فيها دور غرناطة في مواجهة العدو ، وتهنئة على انتصار الأشرف على الافرنج في موقعة الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م[2] .

وتوالى الملوك على غرناطة ، وساد السلم مع قشتالة أحياناً، وبخاصة أيام يوحنا الثاني، ولما خلفه هنري الرابع ساءت العلاقات، ودارت معارك كبيرة بين المسلمين والنصارى ، وسقط ثغر جبل طارق بيد النصارى الإسبان سنة ١٤٦٢ م بقيادة الدوق « مدنيا سيدونيا » ، وهذه أول خطوة ناجعة في سبيل قطع مملكة غرناطة عن عدوة المغرب ، ومنع قدوم الامداد إليها من وراء البحر[3] .

وخلال ذلك كانت دولة بني مرين قد أضحت في دور الضعف والانحلال ، وكان آخر ملوكهم عبد الحق ابن السلطان أبي سعيد المريني ، الذي قتل سنة ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م ، وبقتله انتهت دولة بني مرين بعد أن عاشت زهاء مائتي عام . ليحكم من بعدهم بنو وطاس ، واستولى زعيمهم محمد الشيخ على فاس

---

(١) راجع ابن خلدون ، ج : ٧ ، ص : ٤١٢ .

(٢) هاجم الافرنج بقيادة لوسنيان ملك قبرص ثغر الاسكندرية في صفر ٧٦٧هـ، وملكوها أياما ، ولكنهم هزموا وطردوا بعد معارك شديدة .

(٣) نهاية الاندلس العرب المتنصرين ، ص : ١٢٣ .

سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م لتقوم في المغرب دولة جديدة هي دولة (بني وطّاس) ، ولكنها لم تكن على مستوى قوة بني مَرِين بحيث تستطيع العبور إلى الأندلس لنجدة اخوة مسلمين هناك ، فأضحت غرناطة فريدة وحيدة في جهادها ، فقبل سلطان غرناطة حماية قشتالة مع جزية مقابل السلم والمهادنة ، وغرقت غرناطة في نزاع داخلي بين أسرها الشهيرة : كبني سراج ، وبني أضحى ، وبني الثغري ... ونذر التفكك هذه تبعث على الشؤم دون شك .

وخلف أبو الحسن الملقب بالغالب بالله أباه سعد بن اسماعيل بن الأحمر في ٨٧١ هـ / ١٤٦٦ م بعد تنافس كبير مع أخيه أبي عبد الله محمد المعروف بالزغل[1] والي مالقة ، الذي طلب عون ملك قشتالة هنري الرابع ضد أخيه أبي الحسن . وكان أبو الحسن أميراً وافر الشجاعة والعزم ، يعشق الحرب والجهاد ، وكانت له أيام أبيه غزوات موفقة في أرض النصارى ، ثم اتفق الأخوان على الصلح والتهادن ، على أن يبقى أبو عبد الله محمد الزغل بمالقة وأحوازها .



(١) الزغل تعني الشجاع أو الباسل : El Zagal = El Bravo .

قبيل المصرع

★ روعت أوربة النصرانية لفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، فاضطرمت النزعة الصليبية في اسبانية من جديد ضد غرناطة .

وفي أثناء هذه الأحداث في الأندلس ، استطاع محمد الفاتح فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، لينساب التيار الإسلامي العثماني في جنوب شرقي أوربة ، فروّعت أوربة النصرانية لهذا الفتح الإسلامي الجديد الداهم ، فاضطرمت النزعة الصليبية في اسبانية من جديد ضد المسلمين في غرناطة ، وجاشت اسبانية بقوة صليبية هدفت إلى القضاء على غرناطة ، وساعدها على ذلك الفتن الداخلية ، والانقسامات في غرناطة ، ووحدة اسبانية النصرانية التي بدأت بزواج فرديناند الأراغوني بايزابيلا وريثة عرش قشتالة في تشرين الأول « اكتوبر » ١٤٦٩ م ، واستقر عرش قشتالة لفرديناند وايزابيلا بلا منازع ، وبعد موت يوحنا الثاني سنة

١٤٧٩ م ، والـد فرديناند ، اتحدت المملكتان الاسبانيتان الكاثوليكيتان في ظل عرش واحد .

وكان فرديناند هذا رجل الفرصة السانحة ، يجنح في سياسته إلى الغدر ومجانبة الوفاء ، وكانت زوجه ايزابيلا تجيش بنزعة صليبية ، وواقعة تحت تأثير الأحبار المتعصّبين ، وتنزل عند تحريضهم ، وترتكب أبشع الجرائم باسم النصرانية[١] .

وفي هذه الآونة كانت غرناطة غارقة في سلسلة الحروب الأهلية ، وعلى عرشها أبو الحسن ولد السلطان محمد بن سعد بن اسماعيل الملقب بالغالب بالله ، الذي حاول أن يجدد الهدنة مع قشتالة ، ولكن الملكين الجديدين رفضا إلا بعد دفع جزية سنوية ، فرفض أبو الحسن طلبهما ، وزحف تَوّاً إلى قلعة « الصخرة » غربي مدينة رندة وفتحها سنة ١٤٨١ م[٢] .

ولاح لاسبانية النصرانية أن روحاً جديدة تدبّ في غَرْناطة، بعد هذا النصر الذي رفع المعنويات ، أما أبو الحسن فلم يلبث أن ركن إلى أهوائه وملذاته .

وكان أبو الحسن قد تزوج من عائشة ابنة عمه السلطان أبي عبد الله الأيسر[٣] ، وهي المعروفة باسم « عائشة الحرّة » ، واسمها نجم لامع بالبطولة مع الأسى والشجن في المأساة

---

(١) نهاية الأندلس .. ص : ١٤٢ .

(٢) نهاية الاندلس .. ص : ١٤٧ .

(٣) حكم ثلاث فترات الاولى : ٨٢٠ ـ ٨٣١ هـ ، والثانية : ٨٣٣ ـ ٨٣٥ هـ ، والثالثة : ٨٣٦ ـ ٨٤٥ هـ .

الأندلسية ، لقد تحلّت بشخصية قوية ، مع سمو في الروح ، مع رفيع القيم والمثل ، وقلب جريء يجابه المحن ، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض ، إنها ملكة غرناطة في ظل ملك يحتضر ، رزقت من أبي الحسن بولدين هما : أبو عبد الله محمد ، وأبو الحجاج يوسف •

كانت عائشة الحرة ترى أنه من الطبيعي أن يؤول الحكم إلى ولدها ، ولكن أبا الحسن الذي ترك الجهاد وعشق حياة الدعة ، غرق في عشق روميّة نصرانية تدعى « ثريا » أو « كوكب الصبح »[1] ، فلما تزوجها أبو الحسن عُرفت عائشة بالحرّة تمييزاً لها عن الجارية الرومية ثريا ، أو سُمّيت بذلك لعفافها وطهرها •

وكمن الخطر في أن أبا الحسن الهرم الذي أثقلته السنون غدا أداة سهلة في يد زوجه الفتية الحسناء « ثريا » ، وهي مع جمالها كثيرة الدهاء والأطماع ، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيى وليّاً للعهد ، وكان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد ، وتمكّنت ثريا من اقناع

---

(١) وتعرف في الروايات الاسبانية بايزابيلا أو زريدة ، وهي ابنة القائد الاسباني « سانشوكمنيس دي سوليس » • راجع نهاية الاندلس ، ص : ١٥٠ • والزواج من الاجنبيات اذا كان يسمح فيه والدولة في قوتها ، ولا يخشى على الاولاد من أن ينشؤوا على غير ما تريده لهم أمتهم ، فانه لا يجوز أن يسمح به لمسلم في ظروف ضعف وتربص للعدو ، لان في الزواج بالاجنبيات ما يفقد الاصالة في الامة ، ويوجد التراخي فيها ، ويفقدها وجود جيل يعانق الارض بمعانقة أمه التي خلقت من أرض الوطن •

زوجها أبي الحسن لإقصاء عائشة وولديها حتى اقنعته باعتقالهم جميعاً ، وفي برج قمارش أمنع أبراج الحمراء زُجَّت عائشة الحرة مع ولديها ، وشُدِّد الحجر عليهم ، وعُومِلوا بمنتهى الشدّة والقسوة .

وبذلك انقسم المجتمع الأندلسي في مملكة غرناطة الصغيرة إلى فريقين :

١ً — فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيدة غَرْناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ[1] .

٢ً — وفريق يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرّة) وولديها .

ولم تستسلم عائشة الحرّة إلى واقعها المؤلم ، واتصلت سراً بمؤيديها وأنصارها ، وفي مقدمتهم بنو سراج ، وتمكّنت من الهرب من قصر الحمراء في ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م بمساعدة بعض الأصدقاء المخلصين[2] ، وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها .

وقرر فرديناند وايزابيلا البدء بالحرب بعد أن سنحت

---

(١) ذهبت « ثريا » الى أن حرضت أبا الحسن الشيخ الهرم على قتل ولده أبي عبد الله لأن المنجمين تنبؤوا له عند مولده بأنه سيرقى العرش ، وسيكون آخر من يرقاه من ملوك المسلمين ، وسوف تسقط غرناطة على يديه .

(٢) استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق ، وأنها هبطت بعد ان أدلت ولديها ، وقصة فرارها الجريء أثارت العطف والاعجاب لدى أنصار ولدها .

الفرصة ، وبعد أن رأى مملكة غرناطة تأكلها نار الحرب الأهلية، علماً أنّهما يضطرمان سخطاً لضياع « قلعة الصخرة » .

سار القواد القشتاليون إلى جنوبي غربي غرناطة ، إلى مكان اسمه ألحامة ، أو « الحمة » ، لضعف وسائل الدفاع عنها ، واحتلالها يمهّد لهم احتلال غرناطة ومالقة معاً ، وتم لهم ذلك في المحرم سنة ٨٨٧ هـ/شباط «فبراير» سنة ١٤٨٢ م ، ولم يستطع أبو الحسن استردادها ، ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوشة الواقعة على نهر شنيل شمال ألحامة وعلى مقربة منها ، وأن يردّا معاً الإسبان في جمادى الأولى ٨٨٧ هـ / تموز « يوليه » ١٤٨٢ م[١] .

وسرعان ما نشبت الثورة داخل غرناطة تعاطفاً مع الملكة الشرعية « عائشة الحرّة » وولديها ، ففر الملك الهرم ـ أبو الحسن ـ إلى مالقة ، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع عنها جيشاً جراراً سيّره ملك قشتالة لافتتاحها[٢] ، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة ٨٨٧ هـ ، وعمره ٢٥ سنة . وأراد أن يحذو حذو عمه الزغل في الجهاد ، فخرج في قوات اجتاح بها عدّة حصون وقلاع في ربيع الأول سنة ٨٨٨ هـ / نيسان « ابريل » سنة ١٤٨٣ م ، وهزم النصارى في عدة معارك .

---

(١) نهاية الاندلس .. ص : ١٥٢ .

٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م .

(٢) رد الزغل القشتاليين وهزمهم بموقعة تعرف باسم « الشرقية » في صفر

ولما عاد مثقلاً بالغنائم ، داهمه النصارى في ظاهر قلعة اللسّانة : Lucena ، وكان يزمع حصارها ، فخسر المعركة وأسِرَ على أثرها[1] ، واستقبله القائد الكونت كابرا « قبرة » ، وعاد المسلمون إلى غرناطة دون ملكهم ، فارتاعت العاصمة ، ولكن عائشة الحرة احتفظت بهدوئها وسكينتها ، حتى أنها قالت لزوج ولدها الفتية ابنة الأمير علي العطار معنّفة : « إن الدموع لا تليق بابنة مجاهد ولا بزوج ملك ، وإن الخطر لأشد على ملك يمتنع بقصره منه حين يأوي إلى خيمته ، وإنه لواجب على زوجك أن يشتري سلام عرشه بمخاطر الميدان » .

وحاولت غرناطة اعادة أبا الحسن إلى عرشه بدل ابنه الأسير ، ولكن الاعياء هدمه ، والمرض فتك بجسمه الهرم ، فتنازل عن العرش لأخيه محمد أبي عبد الله الزغل حاكم ثغر مالقة[2] .

جعل فرديناند من أسيره أبي عبد الله الصغير ورقة رابحة ، وأخذ يدبّر أفضل الوسائل للاستعانة به في تحقيق مآربه في مملكة غرناطة ، حتى أن والده أبا الحسن ، لا بباعث الحب والشفقة بل بباعث أن يأمن شر أبي عبد الله الصغير ، طلبه مقابل فدية كبيرة عرضها على فرديناند نظير تسليمه له ، فأبى فرديناند[3] .

---

(١) أسر أبو عبد الله الصغير بسبب جواسيس الاسبان في الاندلس ، لقد كسب الاسبان بعض الخونة ، وسلاح الخونة والجاسوسية ، سلاح ماض ، يحقق أحيانا مالا يحققه السلاح ذاته .

(٢) توفي أبو الحسن في « المنكب » سنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م .

(٣) نهاية الأندلس ، ص : ١٥٦ وما بعدها بتصرف .

وتقول الرواية الاسبانية عن هذه الفترة : إن أم أبي عبد الله الصغير « عائشـــة الحرة » عرضت على فرديناند أموالاً ، وأن يحكم ابنها غرناطة باسم ملك قشتالة مع دفع جزيـــة سنوية ، واطلاق أسرى اسبان في كل عام ، وأن يقــدم معونة عسكرية لقشتالة كلما طلبت إليه . ولكن فرديناند أراد أن ينفذ برنامجاً حربياً ، واستغل بأبي عبد الله الصغير قلة خبرته ، وانعدام حزمه ، وضعف ارادته ، وطموحه للحكم ليس غير ، فاتخذه أداة رائعـــة يوجهها كيفما شاء ، فأقنع فرديناند أبا عبد الله الصغير أن الصلح مع قشتالة خير ، فأخذ أبو عبد الله الصغير يرسل من يقنع المسلمين بأن الصلح خير ، وسيَّر فرديناند في اللحظة ذاتها ينتزع ما يمكن انتزاعه من مملكة غرناطة ، فاحتل رندة التي كانت حاميتها بقيادة حامد الثغري زعيم غمارة ، وذلك في جمادى الأولى ٨٩٠ هـ / نيسان « ابريل » ١٤٨٥ م ، فهدّدوا بذلك ثغر مالقة من الغرب ، وحاول القشتاليون احتـــلال حصن « مكلين » على مقربـــة من غرناطة ، ولكن أبا عبد الله الزغل ردّهم بخسائر فادحة[1] .

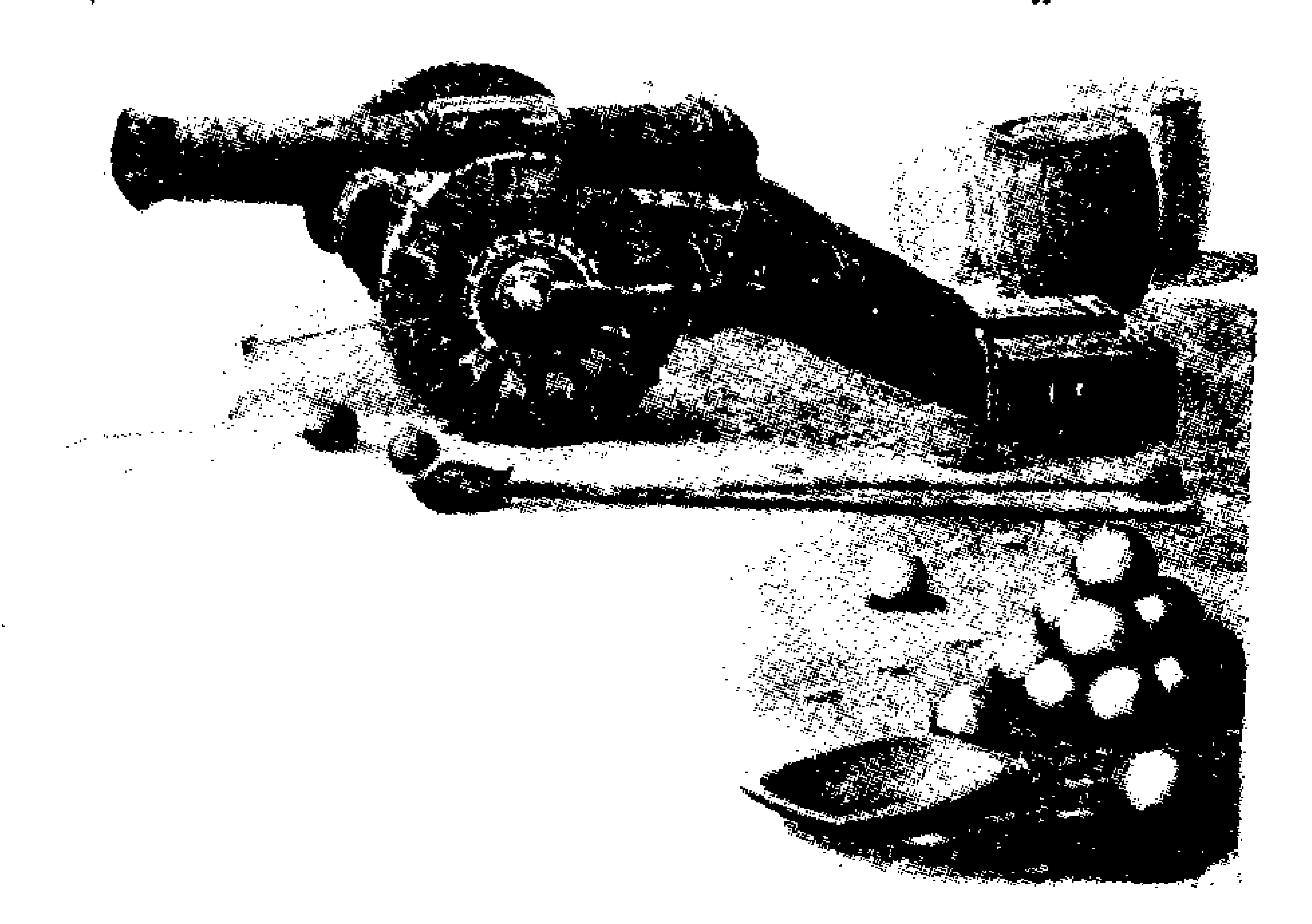
ولسوء الطالع ، قامت في هذه الأثناء فتنة عاملُها الرئيس أبو عبد الله الصغير وحزبه ، حيث دعاه حي البيازين « أو ربض البيازين » فَشُغِل أبو عبد الله الزغل باخماد الفتنة عن مقاتلة الاسبان ، وفي أحرج الظروف أطلق فرديناند سراح أبي عبد الله الصغير ، بعد أن وقّعه على معاهدة أعلن بها خضوعه وطاعته للملك

(١) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، ص : ١٥٦/١٥٧ .

قشتالة مدتهـا عامان ، وأن تطبّق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبد الله الصغير ، وأخـذ يبث أبو عبد الله الصغير دعوته في شرق الأندلس ، والحرب الأهلية قائمة في غرناطة منذ أوائل سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م ، وزاد الأمر سوءاً سقوط مدينة لوشة بيد النصارى في أواخر جمادى الأولى ٨٩١ هـ / أيـار « مايو » ١٤٨٦ م ، وكان موقف أبي عبد الله الصغير أثناء هـذه الحوادث الجسام مريباً :

١ً ــ فهو ما زال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى الإسبان •

٢ً ــ وبقي يستظل بمظاهرته للنصارى وبتأييدهم له •



★ المدافع « الانفاط » : تمثل الصورة أعلاه مدفعاً مع قذائفه المعدنية ، استعمل في الحروب في الاندلس منذ القرن الثالث عشر الميلادي • وتجدر الإشارة إلى أن المعركة الضارية التي خاضها المسلمون دفاعاً عن مدينتهم العظيمة غرناطة استعمل مثل هذا السلاح فيها •

٣ً ـ وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه، فهو الورقة الرابحة بيد فرديناند .

وفي هذه الحروب ضرب القشتاليون الحصون الإسلامية « بالأنفاط » كما ذكر في « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » : « وكان له أنفاط يرمي بها ـ فرديناند ـ صخوراً من نار ، فتصعد في الهواء وتنزل على الموضع ، وهي تشتعل ناراً، فتهلك كل من نزلت عليه وتحرقه ، فكان ذلك من جملة ما كان يخذل في أهل المواضع التي كان ينزل بها »[1] .

والأنفاط سلاح معروف منذ الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي ، واستعمله الموحّدون لدفع النصارى الإسبان ، ولقد أخذ الاسبان سرّ الأنفاط وطوّروه ، وحذقوا في استعماله مع مرور الزمن ، ولما غلب الضعف على غرناطة تضاءلت أهباتها الدفاعية ، ونقصت مواردها في السلاح والذخيرة ، وبخاصة بعد أن فقدت معظم قواعدها الصناعية .

وفي « أخبار العصر » صفحة ٢٤ : إن النصارى حينما نشبت الثورة في ربض البيازين أمدّوا فريقاً من الثوار « بالرجال والأنفاط والبارود » ، فالأنفاط التي تنوه عنها الرواية الإسلامية بفتكها بحصون المسلمين وصفوفهم إنما هي المدافع ذاتها « وإن تفوّق القشتاليين في استعمال هذا السلاح ، كان له أعظم

---

(١) « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » ، ص : ٢٢ .

الأثر في التعجيل باخضاع مملكة غرناطة والقضاء عليها »[1] .

وفي شوال ٨٩١ هـ / تشرين الأول « اكتوبر » ١٤٨٦م ظهر أبو عبد الله الصغير في ربض البيازين ومن حوله أنصاره ، وأمده فرديناند بالرجال والذخائر والمؤن ـ وبخاصة الأنفاط ـ فزادت الفتنة اضطراماً ، واستغل فرديناند الفتنة القاتلة واحتل « بلش مالقـة : Velez » على الرغم من استبسال أهلها في الدفاع عن مدينتهم بمساعدة الزغل ، فعاد الزغل منها باتجاه غرناطة ليجدها قد خضعت لأبي عبد الله الصغير ، وتبوّأ عرشها في ٥ جمادى الأولى ٨٩٢ هـ ، فارتد الزغل إلى وادي آش وبذلك انقسمت مملكة غرناطة الصغيرة إلى شطرين :

١ً ـ غرناطة وأعمالها ويحكمها أبو عبد الله الصغير .

٢ً ـ ووادي آش وأعماله ، ويحكمها عمه محمد بن سعد أبو عبد الله الزغل .

وتحقق بذلك لفرديناند ما أراده وسعى إليه ، فقد تمزّقت دولة الإسلام بالأندلس وستسعى بسرعة إلى مصرعها قبل أن تعود إلى وحدة صفها ثانية . وترك فرديناند أبا عبد الله الصغير الخاضع له ، وبدأ بالأنحاء الشرقية والجنوبية التي تخضع لعمه أبي عبد الله الزغل ، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في جمادى الثانيـة

---

(١) « نهايـة الأندلس وتاريخ العـرب المتنصرين » ، ص : ١٦٠/١٦١ .
« والأنفاط » الالغام أيضا توضع تحت الاسوار ، لقد نسفت بعض المعاقل بالبارود لاول مرة في تاريخ الاسبان في هذه الآونة .

٨٩٢ هـ/حزيران «يونية» ١٤٨٧ م ، وخاف الزغل أن يسير إلى انجادها من وادي آش ، خاف غدر ابن أخيه أبي عبد الله الصغير ، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباي ، ولم يكن من المنتظر أن تصمد مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة[1] . فسقطت في أواخر شعبان ٨٩٢ هـ / آب « أغسطس » ١٤٨٧ م ، ونكث فرديناند بوعوده التي قطعها لأهل مالقة ، فغدر بهم واسترقّهم جميعاً، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين .

لم يكن وضع مصر والملك الأشرف مما يسمح له بارسال جيش لانجـاد الأندلس ، لتنافسه وتحفظه وحروبه مع سلطان العثمانيين « بايزيد » ، فاستعمل الضغط السياسي ، فاختار راهبين لسفارة مصرية مملوكية ، أرسلهما إلى البابا أنوصان الثامن وإلى ملوك النصرانية ، أحدهما القس انطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس في بيت المقدس ، الذي ذكر في سفارته في روما ونابولي وقشتالة أن النصارى في بلاد المسلمين في منتهى الأمان والاطمئنان والحريـة والحمايـة ، والمسلمون تسفك دماؤهم ، وتستحل حرمتهم ، وتغزا أراضيهم في الأندلس ؟!

وطلب سلطان المماليك من سفيره المرسل أن يتوعّد فرديناند

---

(١) دول المغرب يومئذ يسودها الضعف والتفرق ، فلم تهرع لنجـدة غرناطة كعهدها ، بل اجتاز بعض المجاهدين بشكل افرادي كمتطوعين للجهاد . ومصر اهتمت بغرناطة بشكل خاص ، واهتزت لمصابها لانها كانت مرتبطة مع ثغور الاندلس بعلائق تجارية وثيقة ، بخاصة ، وأن لمصر سمعتها الطيبة في الحروب الصليبية ، ولها هيبتها في نفوس الاوربيين آنذاك ، ويمكن القول ان فكرة انجاد الاندلس كانت تلقى في بلاط القاهرة والقسطنطينية العطف نفسه .

إن لم يغيِّر خطته وسياسته تجاه غرناطة ، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصارى في بلاد المسلمين كمعاملة بالمثل .

استقبل فرديناند السفيرين ، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف ، ولم يغيِّر خطته ، ولكنه كتب إليه في آدب المجاملة : « أنهما ــ فرديناند وزوجه ايزابيلا ــ في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاؤوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين ، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية »[1] .

وفشلت المحاولة الدبلوماسية ، وتركت غرناطة تلاقي قضاءها المحتوم ، ولم ينفذ السلطان تهديده ، فلم يضطهد أحداً ، لأن الإسلام لا يجيز له ذلك . وأخذت المدن تتساقط تباعاً بيد فرديناند ، فسقطت مالقة في عام ٨٩٢ هـ / ١٤٨٧ م ، ثم ثغر المنكب والمرية في عام ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠ م[2] ، فلم يبقَ ثغر واحد

---

(١) نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، ص : ١٦٩ .

(٢) استسلمت المرية بشروط هي أنموذج لشروط سقوط باقي القواعد الاسلامية وأهمها :

١ ــ يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم .

٢ ــ تخفف عنهم أعباء الضرائب .

٣ ــ ألا يولى عليهم يهودي .

٤ ــ ألا يدخل نصراني في « الجماعة » الاسلامية .

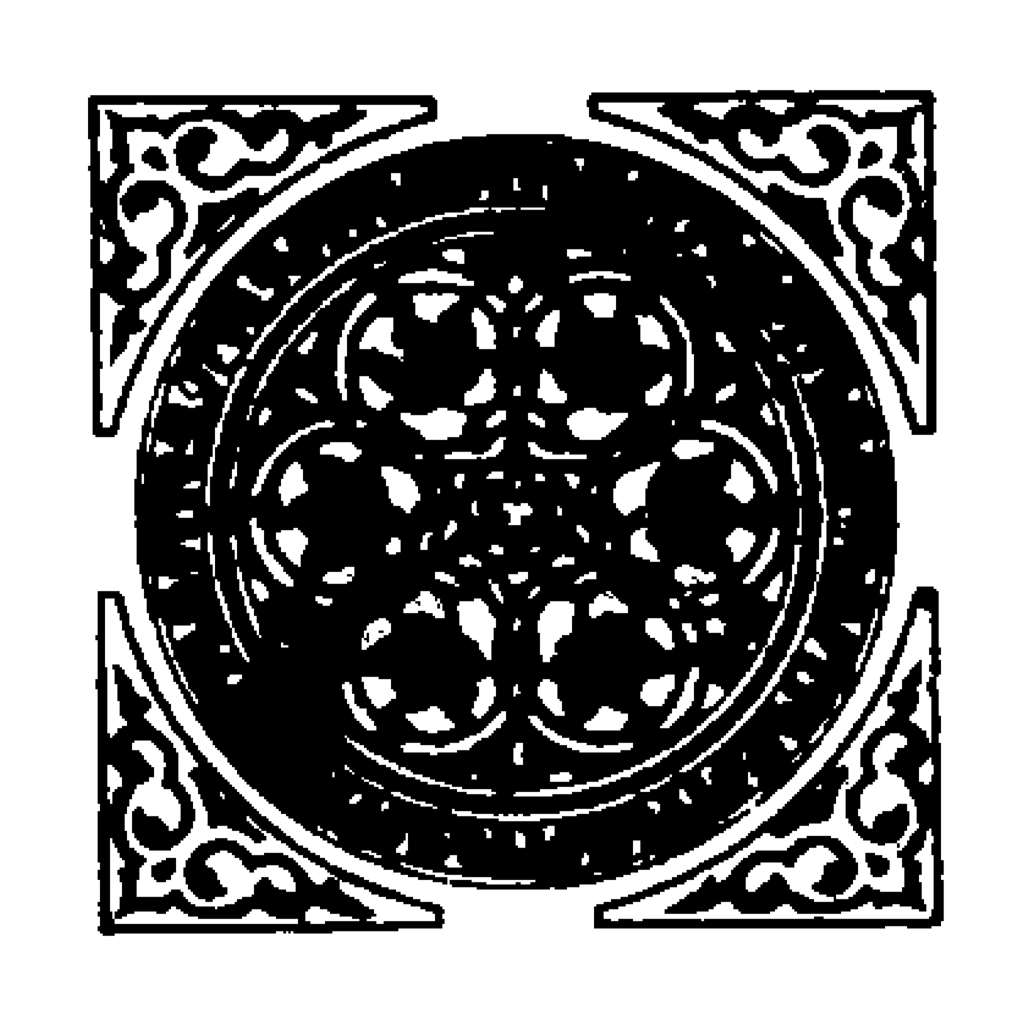
٥ ــ وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات نصارى الدين الذي يريدون عند البلوغ .. وغيرها من الشروط .

يصل غرناطة بالمغرب حيث كانت تفد بعض المتطوعة ، وانقطعت الصلة نهائياً بعدوة المغرب وبشمال افريقية .

وتطوّر سير الأحداث فانضوى الزغل تحت لواء النصارى ـ على الرغم من شجاعته وبسالته ـ فقد رأى أنه يغالب المستحيل ، ودخل النصارى وادي آش في أوائل صفر ٨٩٥ هـ / كانون الثاني « يناير » ١٤٩٠ م . وبقي الزغل يحكم « وادي آش » تحت حماية ملك قشتالة ، ولم يقبل بهذا الوضع المهين ، فجاز البحر إلى المغرب ، ونزل وهران ، ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس .

وبقيت غَرْناطة آخر القواعد الإسلامية ، وعلى عرشها أبو عبد الله الصغير . واقتربت من مصرعها ، تنتظر الضربة القاضية .

بقيت غرناطة رمزاً لدولة أو مملكة فقط ، وبدأ هذا المعقل الوحيد الباقي للاسلام في اسبانية ينهار منتظراً نهايته المحتومة .





« جَنّة في غرْناطة »

مَصرع غرناطة

٢ ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ
٢ كانون الثاني «يناير» ١٤٩٢ م

★ العجز ضيع ملك أندلس
واليـوم لا ملك ولا شمم .

أرسل الملكان الكاثوليكيان ــ فرديناند وزوجه ايزابيلا ــ وفداً يطلب تسليم غرناطة من أبي عبد الله الصغير ، فثارت نفس أبي عبد الله الصغير لهذا الغدر والخيانة ، وأدرك ــ وربما لأول مرة ــ فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر ، ومعاونته على بني وطنه ودينه ، فرفض التسليم ، وقرر الدفاع[1].

اغتاظ فرديناند وسخط ، فعاث في بسائط غرناطة في ربيع سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠ م ، وخرّب الضياع والقرى ، وجرت ملاحم دموية على أسوار غرناطة ذاتها ، وارتحل فرديناند على أثرها ،

---

(١) كان في غرناطة ٢٠٠,٠٠٠ نسمة ، وفي أعمالها حولها ٢٠٠,٠٠٠ نسمة أيضا .

ليرمِّم القلاع ، ويشحن الأبراج القريبة من غرناطة ، استعداداً للمعركة القادمة .

ودبَّت روح جديدة في غرناطة عندما ثار أهل البشرات ، وغمر البشر والتفاؤل المسلمين لما فتحوا بعض الحصون القريبة من غرناطة وعادوا ظافرين ، وحاول أبو عبد الله الصغير استعادة ثغر المنكب لإعادة الصلة مع شواطىء المغرب ، لكنه عاد لما علم أن فرديناند عاد إلى مرج غرناطة بعد أن أفزعته الثورات ، التي كان آخرها ثورة وادي آش[1] .

سار فرديناند بجيش تراوح ما بين ٥٠ ــ ٨٠ ألفاً ، مع مدافع وعُدَد ضخمة ، وذخائر وأقوات ، وعسكر على ضفاف نهر شنيل على مقربة من غرناطة في ١٢ جمادى الثانية سنة ٨٩٦ هـ / ٢٣ نيسان « إبريل » سنة ١٤٩١ م ، وأتلف الحقول والزروع والقرى كي لا تمد غرناطة بأي طعام ، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من ملك تليد ، يحيط بها العدو كالموج من كل جهاتها .

لقد كان دفاع غَرْناطة من أمجد ما عُرِف في تاريخ المدن المحصورة ، والقواعد الذاهبة ، ولم يكن هذا الدفاع قاصراً على تحمل ويلات الحصار على مدى أشهر ، بل كان يتعداه إلى ضروب رائعة من الإقدام والبسالة . فقد خرج المسلمون خلال الحصار

---

(١) راجع « نهاية الاندلس » صفحة : ١٧٥ وما بعدها ، لقد اعتمدناه في تلخيص أخبار هذا الفصل « مصرع غرناطة » .

لقتال العدو المحاصر مراراً عديدة ، يهاجمونه ويثخنونه في مواقعه، ويفسدون عليه خططه وتدابيره .. أولئك الأنجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسية الأندلسية ، التي لبثت قروناً ثمانيــة زاهرة خلال العصور الوسطى .

وقرر فارس عربي شجاع المقاومة والجهاد إلى آخر رمق ، وهو موسى بن أبي غَسّان[1] ، ومن أقــواله : « ليعلم ملك النصارى أن العربي قــد ولد للجــواد والرمح ، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية ، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت مدافعاً عنه ، من أفخر قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين » .

وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين ، يعــاونه نعيم بن رضوان ، ومحمد بن زائدة ، وتولى آل الثغري حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون .

وقطعت غرناطة عما حولها تماماً باستثناء طريق البشرات الجنوبية من ناحية جبل شُلير سبيرا نيفادا ، فجلبت منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة[2] .

---

(١) ذكره الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني سفير عاهل المغرب «اسماعيل» الى كراوس الثاني ملك اسبانية في رحلته التي كتبها عن سفارته بعنوان « رحــلة الوزير في افتكاك الاسير » . ولكن المصادر القشتالية تفيض في ذكر موســى وروائع بسالتــه .

(٢) أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ، ص : ٤٦ ، ونفح الطيب ، ج : ٦، ص : ٢٧٦ .

وحلّ الشتاء ، وقلّت المؤن والذخائر ، ودخل الوزير المسؤول عن غرناطة « أبو القاسم عبد الملك » مجلس أبي عبد الله الصغير ، وقال : إن المؤن الباقية لا تكفي إلا لأمد قصير ، وإن اليأس قد دبّ إلى قلوب الجند والعامة ، والدفاع عبث لا يجدي .

ولكن موسى بن أبي غسّان قرر الدفاع ما أمكن ، فقال للفرسان : « لم يبق لنا سوى الأرض التي نقف عليها ، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن » .

وزحف فرديناند على أسوار المدينة المحاصرة ، فخرج المسلمون إلى لقائه ، وكان القتال رائعاً ، ولكن مشاة المسلمين لم يصمدوا ، فأوصد المسلمون أبواب غرناطة ، وامتنعوا خلف أسوارها يلاقون قدر تمزّقهم وترفهم وملاذّهم ، « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم[1] » صدق الله العظيم ، لقد تنازعوا ففشلوا ، وها هي ريحهم ـ كيانهم وسلطانهم وسيادتهم وحكمهم .. ـ كل ذلك يضيع وينقضي .

استمر الحصار سبعة أشهر ، واشتد الجوع والحرمان والمرض ، وأعيد تقويم الموقف في بهو الحمراء ، فأقر الملأ التسليم إلا موسى بن أبي غسّان الذي قال بحزم : « لم تنضب كل مواردنا بعد .. ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا

---

(١) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ٤٧ .

تسليمها » ، وكانت هذه الكلمات تخاطب يائسين قرّروا المفاوضة والتسليم ، وكُلّف لهـذه المهمة الأليمـة الوزير أبو القاسم عبد الملك في أواخـر سنة ٨٩٦ هـ / تشرين الأول « اكتوبر » ١٤٩١ م •

فاوض الوزير أبو القاسم عبد الملك فرناندو دي فافرا ، وجونز الفودي كردوڤا ــ العارف باللغة العربية والخبير بالشؤون الإسلامية ــ فوضعوا معاهدة وافق عليها أبو عبد الله الصغير وفرديناند في ٢١ المحرم ٨٩٧ هـ / ٢٥ تشرين الثاني « نوفمبر » ١٤٩١ م •

اشترط المسلمون أن يوافق البابا على الالتـزام والوفاء بالشرط إذا مكّنوا النصارى من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون، ويحلف على عادة النصارى في العهود •

جاء في نفح الطيب[1] : « وفي ثاني ربيع الأول من السـنة ــ أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة ــ استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوف الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين ، منها : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقـاء النـاس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنهـا إقامة شريعتهم على ما كانت ، ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم ،

---

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، الناشر : دار الكتاب العـربي ببيروت ، ج : ٦ ، ص : ٢٧٧/٢٧٨ •

وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً ، وأن لا يولى على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قِبَل سلطانهم قَبْل ، وأن يفتكّ جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً أعْياناً نصّ عليهم ، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غَرْناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومَنْ أراد الجواز للعُدْوة لا يُمْنَع ، ويجوزون في مدة عُيِّنت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ، ثم بعد تلك المدة يُعْطُون عُشْرَ مالهم والكراء ، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لا يقهر مَنْ أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم ، وأن من تنصَّر من المسلمين يُوقَف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد ، ولا يُعَاتب مَنْ قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ، وترفع عنهم جميعهم المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصراني للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن[1] ،

---

(١) المدجنون : Mudijares هم المسلمون الذين بقوا في الوطن القديم تحت حكم الاسبان ، من دجن وتدجن أي أقام . وكانت الكنيسة تبغض هذه الطائفة الاسلامية القائمة في قلب المجتمع النصراني ، على عكس المسلمين ، فقد عاش بينهم نصارى عرفوا باسم : Mozarabes وتمتعوا بالرعاية والتسامح والرفق ، ومع الاسف كادوا للمسلمين وانضموا لجيش الاسبان !!

ولا يمنع مؤذن ولا مُصَلٍّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منهم يُعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وأن يوافق على كل الشروط صاحبُ رومة ويضع خط يده » •
ويقول المقَّرِيُّ بعد هذا : « وأمثال هذا مما تركنا ذكره » من الشروط •

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان : « وهذا أفضل مايمكن الوصول إليه في مثل هذه المحنة ، لو أخلص النصارى في عهودهم، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم في وفاء أعدائهم ، ولما أنِسَ فرديناند وايزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلنا في يوم ٢٩ تشرين الثاني « نوفمبر » مع قسم رسمي بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم ، أو حيث شاؤوا ، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب ، ولكن سوف نرى أن الأيمان والعهود لم تكن عند ملكي النصارى سوى ستار للخيانة والغدر ، وأن هذه الشروط الخلابة نُقِضَت جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غَرْناطة ، ولم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت نفسه Prescott أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور » •

وهذا ما تنبَّأ بـه فارس الأندلس موسى بن أبي غسَّان حينما اجتمع الزعماء في بهـو الحمراء الكبير ليوقعوا على قرار التسليم ، وقال : « اتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال

لنا قلوب لم تُخْلَق لإرسال الدمع ، ولكن لتقطر الدماء ، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غَرْناطة، وسوف تحتضن أمتنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه ، ولئن لم يَظْفَر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها .

وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء ، واليأس ماثل في الوجوه ، وغاص كل عزم في تلك القلوب الكسيرة ، عندئذ صاح أبو عبد الله الصغير : « الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله ، تالله لقد كتب لي أن أكون شقياً ، وأن يذهب الملك على يدي[1] » ، وصاح من حوله على أثره : « الله أكبر ولا راد لقضاء الله » وقرّروا جميعاً التسليم وأن شروط النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه .

نهض موسى بن أبي غسّان وصاح : « لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم ، إن الموت أقل ما نخشى ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدها ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا ، وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصّب الوحشي ، والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق ، هذا ما سوف نعاني من مصائب الموت الشريف ، أما أنا فوالله لن أراه » . ثم

---

(١) نهاية الاندلس ، ص : ١٨٧ .

غادر المجلس واخترق بهو الأسود « كورة السِّباع » عابساً حزيناً ، فوصل داره ، ولبس سلاحه ، وسار على جواده مخترقاً شوارع غرناطة .

هذه الصورة الحزينة المؤلمة صاغها الشاعر عدنان مردم بك في الأبيات التالية[1] :

أنا لن أقرَّ وثيقةً	فُرِضَتْ وأخضعَ للعِدَا
ما كان عذري إنْ جبنت	وخفت أسبابَ الرَّدى
والموتُ حقٌ في الرقابِ	أطالَ أمْ قَصُرَ المدى
إني رسمتُ نهايتي	بيدي ، ولن أتردَّدا
كنتُ الحسامَ لأمتي	واليوم للوطن الفِدى
أنا لن أعيشَ العمرَ	عبداً ، بل سأقضي سيِّدا .

وعلى ضفة نهر شنيل قابل موسى بن أبي غسَّان سريَّة من الفرسان النصارى تبلغ نحو الخمسة عشر ، فطلبوا إليه أن يقف ، وأن يعرِّف نفسه ، فلم يجب ، بل وثب إلى وسطهم وانقض يثخن فيهم طعاناً ، وكانت ضرباته قاتلة ، حتى أفنى معظمهم ، غير أنه أصيب في النهاية بجرح أسقطه عن جواده ، ولكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره ، وأخذ يجاهد عن نفسه ، فلما رأى أن قواه قد نضبت ، ولم يرد أن يقع أسيراً في يد خصومه ارتد إلى ما ورائه بوثبة أخيرة ، فسقط في مياه نهر شنيل ، فدفعه سلاحه الثقيل إلى

---

(١) ديوان شعر يحمل اسم « مصرع غرناطة » وهو مسرحية ، راجع ، ص : ٥١٢.

الأعماق . وتقول رواية اسبانية : إن بعض العرب المتنصّرين في المعسكر الإسباني عرفوا جواده المقتول .

وفي ٢٠ كانون الأول « ديسمبر » أرسل أبو عبد الله الصغير وزيره يوسف بن كماشة إلى فرديناند مع رهائن من الأعيان ووجوه القوم ـ تنفيذاً لنص المعاهدة ـ مع بعض الهدايا ، واتفق مع ملك قشتالة فرديناند على تسليم المدينة في الثاني من كانون الثاني « يناير » سنة ١٤٩٢ م / الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ هـ . وسير فرديناند المطران « مندوسا » ليحتل قصر الحمراء ، وليمهد الطريق لمقدم الركب الملكي ، وما كاد النصارى يجوزون إلى داخل القصر حتى رفعوا فوق برجه الأعلى صليباً فضّياً كبيراً ، وأعلن من فوق البرج أن غَرْناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكيين ، ودخل فرديناند وايزابيلا قصر الحمراء مع فرقة رهبان ترتل ، وكل ما جرى يؤكد الصفة الصليبية العميقة لهذه الحرب التي شهرتها اسبانية النصرانية على المسلمين ، والإسلام في اسبانية .

وهكذا اختتمت المأساة الأندلسية ، واستولى النصارى على غَرْناطة آخر الحواضر الإسلامية في اسبانية ، وخفق علم النصرانية ظافراً فوق صرح الإسلام المغلوب ، وانتهت بذلك دولة الإسلام بالأندلس وطويت ولا ندري إلى الأبد أم إلى أمد ، تلك الصفحة المجيدة المؤثرة من تاريخ الإسلام ، وقضي على الحضارة

الأندلسية الباهرة وآدابها وعلومها وفنونها ، وكل ذلك التراث الشامخ بالفناء والمحو[1] .

* * *

مصير أبي عبد الله الصغير :

خرج أبو عبد الله الصغير وأسرته في الثاني من كانون الثاني « ينـاير » سنة ١٤٩٢ م ، ليستقر في البشرات ، حاكماً باسم فرديناند وتحت حمايته .

غادر غرفَ قصر الحمراء وأبهاءه والوجوم يغطي محياه ، واحتبست الزفرات في الصدور ، وسار بركب قاتم حزين ، لملك منفي ، وأمّه عائشة الحرّة على جوادها يشع الحزن من محياها الوقور .

قال أمير الشعراء أحمد شوقي يصف الموقف :

مشت الحادثات في غرف الحمـ	ـراء مشي النعش في دار عرسِ
عَرَصات تخلّت الخيل عنها	واستراحت من احتراس وعسِ
ومفاتيحهـا مقاليـد ملكٍ	باعها الوارث المضيّع ببخسِ
خرج القوم في كتائب صُمٍّ	عن حفاظ كموكب الدفن خرسِ
ركبوا بالبحار نَعْشاً وكانت	تحت آبائهم هي العرش أمسِ

وعلى ضفة نهر شنيل التقى أبو عبد الله الصغير بفرديناند ،

---

(١) عن نهاية الأندلس بتصرف ، ص : ١٩١ .

وقدّم إليه أبو عبد الله مفاتيح الحمراء قائلاً : « إن هذه المفاتيح هي الأثر الأخير لدولة العرب في اسبانية ، ولقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا ، وهكذا قضى الله[1] ، فكن في ظفرك رحيماً عادلاً » . ثم سار مع فرديناند حيث ايزابيلا ، فقدّم الطاعة والتحيات ، واتجه إلى طريق البشرات ، وفي شعب « تل البذول أو بادول » أشرف على غَرْناطة ، فأجهش بالبكاء على هاتيك الربوع العزيزة ، التي شهدت مواطن عزة الإسلام وسلطانه ، فصاحت به أمه عائشة الحرة : « **أجل ، فلتبك كالنّساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال** » .

وتعرف اسبانية تلك الأكمة التي كانت مسرحاً لذلك المنظر المحزن باسم شعري مؤثّر ، هو : « **زفرة العربي الأخيرة** » . وما تزال قائمة حتى اليوم ، يسوق سكان تلك المنطقة السائح ليراها .

يقول الشاعر عزيز أباظة في مسرحيته الشعرية « غروب الأندلس » على لسان عائشة الحرّة :

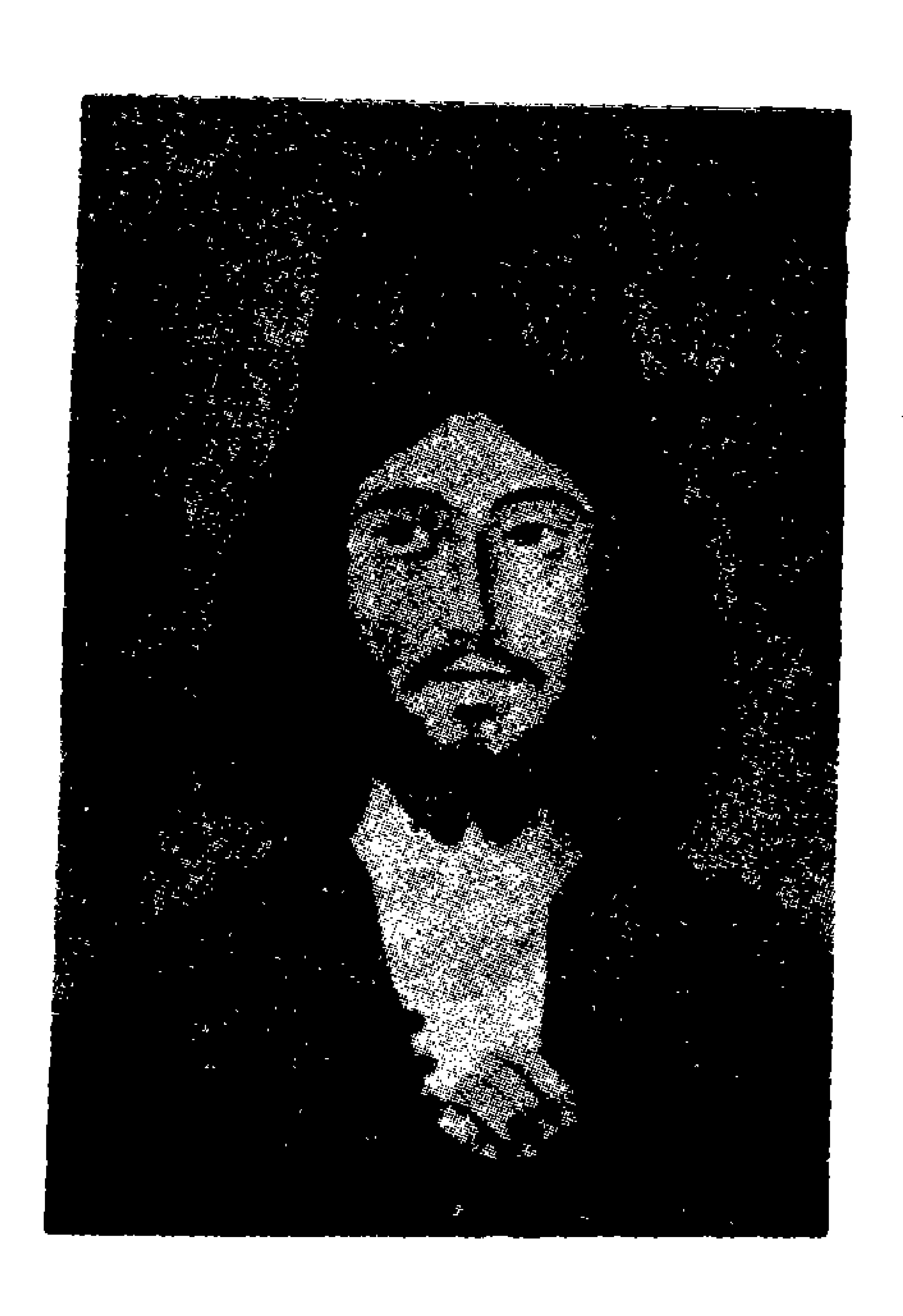
تَذْكُرُ اللهَ باكياً ؟!؟ هل يردّ الدَّمْعُ
مجداً ثَوى وعاراً أقامَا

(١) قضاء الله عز وجل بأسباب ومسببات ، فقضاء الله عند الوحدة والتماسك والخلق القويم ... القوة والبقاء ، وقضاؤه سبحانه عند الفرقة والتشتت والميوعة والترف والملذات .. الضعف والفناء .

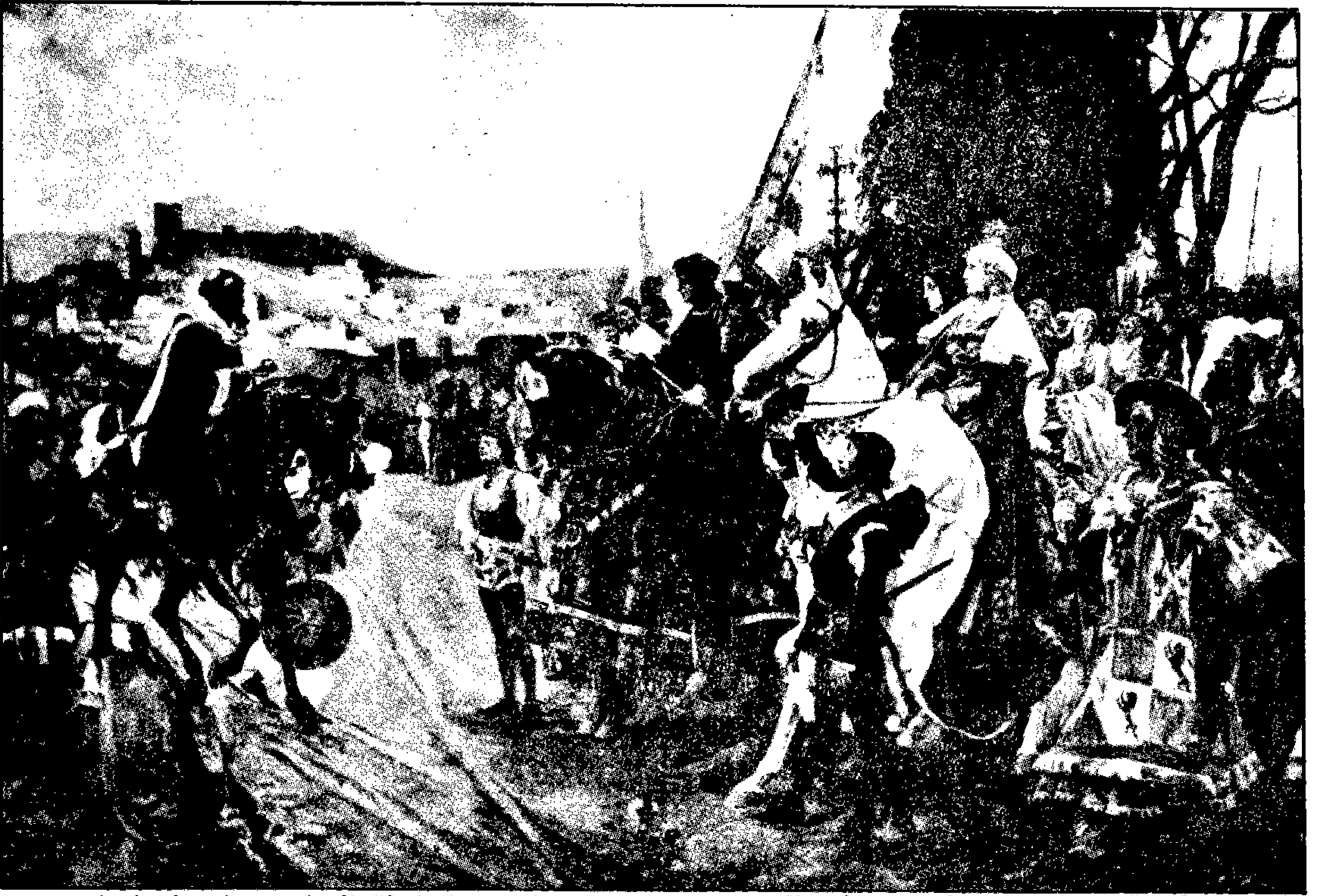
هَدَّني فوقَ خَطْبِنَا أنكَ ابني
يا لأمٍّ تُسْقَى العذابَ تُؤاما

لم تَصُنْ كالرِّجالِ مُلْكاً فأمْسَى
ركنُهُ اندَكَّ فابكِهِ كالأيامى

★ ★ ★



أبو عبد الله الصغير
آخر ملوك الأندلس ، عن صورة بمتحف « دار الرماية » بغرناطة .



★ لوحة زيتية تمثل أبا عبد الله الصغير وهو يسلم مفاتيح غرناطة إلى فرديناند وايزابيلا ٠

نتائج مصرع غرناطة

★ مأساة العرب المتنصرين
« الموريسكيين » ، في محاكم التفتيش التي
هدفت أولا وأخيرا : « ابادة الآمة الاندلسية ».

يقول المؤرخ « كوندي » : « العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها ، وأصبحوا على قلب متقلّب ، يميل إلى الخفة ، والمرح ، والاسترسال بالشهوات » .

والحقيقة تقول .. إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم ، وناموا في ظل ظليل من الغنى الواسع، والحياة العابثة والمجون ، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر ، فذهبت أخلاقهم :

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم　　فأقم عليهم مأتماً وعويلا .

كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل ، الذين كانوا يتدرّبون على السلاح منذ نعومة أظفارهم ، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرّسوا على الحياة الخشنة الجافية ، وغدا التهتك

والخلاعة ، والاغراق في المجون ، واهتمام النساء بمظاهر التبرج، والزينة بالذهب واللآلىء ، من أبرز المميزات أيام الاضمحلال •

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون ، وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها ، فكانت الخمور والقيان والمتع ، وأقبلوا على الحياة يعبثون من بحرها ويسكرون بعطرها • لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة ، والجواري الشاديات ، وبحكم البديهة فإن شعباً يهوي الى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون ، لا يستطيع ، أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد ، أو يتكوّن منهم جيش قوي ، كفء للحرب والمصاولة •

لذلك عندما انتصر الإسبان ، واستسلمت غرناطة صريعة ذبيحة ، بكى أهلها تألماً لما أصابهم ، وندب فيها النادبون ، فقالوا : غرناطة يا أجمل المدن !!

لن تسري بعد اليوم نغمات العود الناعمة في شوارعك المقمرة •

ولن تسمع ألحان العشاق تحت قصورك العالية ••

وستسكت دقات الصنوج المرحة التي كانت تتناغم فوق تلالك الخصبة ••

وستقف الرقصات الجميلة تحت عرائشك الوريفة ••

واحسرتاه ! لن يستمع عربي بعد اليوم إلى البلابل تصدح في مروجك الفسيحة •

ولن يستروح أريج الريحان وأزهار البرتقال في ربوعك المؤنسة ..

لأن نور الحمراء أطفىء إلى الأبد[1] .

نفوس أهل الأندلس التي وصفنا في الأسطر السابقة ، كانت سبب ضياع الأندلس ، والسبب المباشر لمصرع غرناطة . وتساهل الاسبان في صلحهم وبشروطهم عند مصرعها ، لأنهم كانوا يريدون الصلح ليخدعوا عن طريقه ، وحتى يتم لهم بواسطته استسلام المسلمين كي يكملوا بعد ذلك خطتهم بالقضاء عليهم غدراً .

إن مصرع غرناطة نتيجة طبيعية لما تقدّمه من الحوادث الأندلسية ، ومصرعها محنة محزنة تركت في جنبات العالم الإسلامي — والمغرب بخاصة — وقعاً أليماً عميقاً ، كما تركت ابتهاجا سعيداً في الأمم النصرانية ، واعتبرته تعويضاً لسقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام قبل نحو نصف قرن[2] ، فأقام البابا في روما قداساً أعظم .

ومن نتائج مصرع غرناطة ، أن فرديناند أرسل « بيترو مارتيري » سفيراً إلى سلطان المماليك في القاهرة ليقنعه أن المسلمين يعاملون معاملة حسنة تحت رعايته ، كي لا ينكل السلطان برعاياه النصارى .

---

(١) « عبر وعبرات من دمشق الاندلس » ، جواد مرابط . نشر « دار العربية » بيروت ، ص : ١٥٤ وما بعدها بتصرف .

(٢) سقطت القسطنطينية في يد الاسلام عام ١٤٥٣ م ، وسقطت غرناطة في يد النصارى عام ١٤٩٢ م .

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر آبو عبد الله الصغير إلى المغرب مع اسرته وأمواله ، ونزل مدينـة مليلة ثم اسـتقر في « فاس »[1] ، مستجيراً بالسلطان أبي عبد الله محمد الشيخ زعيم بني وطّاس ، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه ، ونظم هذا الاعتذار شعراً أبو عبد الله محمد بن عبد الله العـربي العُقَيلي ، وقدمه على لسان أبي عبد الله الصغير لزعيم بني وطاس في رسالة حملت العنوان التالي : « الروض العاطر الأنفاس ، في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » ومنها في مطلعها :

مولى الملوك ملوك العـرب والعجـم
رَعْياً لمـا مثلُه يُرْعَى من الذِّمَمِ
بك استجرنا ونعم الجـار أنت لمن
جـار الزمـان عليـه جَوْرَ منتقمِ
حتى غـدا ملكـه بالرغـم مستلباً
وأفظـع الحظ ما يأتي على الرغمِ
حكمٌ من اللهِ حتى لا مـردَّ له
وهل مـردٌ لحكمٍ مِنْهُ منحتمِ
وهي الليـالي وقاك الله صَوْلَتها
تصول حتى على الآسـاد في الأجَمِ
كنـا ملوكاً لنـا في أرضنا دول
نمنا بهـا تحت أفنـانٍ من النعمِ

(١) نفح الطيب ٠٠، ج : ٦ ، ص : ٢٧٨ ٠

فأيقظتنا سـهام" للـردى صبب
يرمى بأفجع حتْف مَنْ بهنّ رُمي
فـلا تنـم تحت ظل الملك نومتنـا
وأي ملك بظلّ الملك لـم ينـمِ
يبكي عليـه الـذي قـد كان يعرفه
بأدمعٍ مزجت أمواههـا بِدَمِ [(١)]

صحيح أن غرناطة كانت تسير منذ زمن نحو مصرعها • ولكن أبا عبد الله الصغير عجّل بوقوع المأساة بالجنوح إلى الدعة والخمول والحرب الأهلية ، وترك شؤون الدفاع والعدو من ورائه متربّص متوثّب يرقب الفرص • ويرى الأستاذ عنان[(٢)] : « أليس لنا بعد ذلك أن نحكم على آخر ملوك الأندلس ؟ إن أبا عبد الله يحمل أمام الله والتاريخ تبعةً لا ريب فيها ، بيد أنه من الحق أيضاً أن نقول : إنها ليست تبعة الخيانة أو الجريمة العمد ، بل هي تبعة التفريط والخطأ وعدم التبصر في العواقب »[(٣)] •

★ ★ ★

(١) الابيات ١٢٨ بيتا تجدها في نفح الطيب ، ج : ٦ ، من الصفحة ٢١٨ وحتى الصفحة ٢٨٨ • وفي نهاية القصيدة دفاع طويل واعتذار واعتراف بالخطأ •

(٢) نهاية الأندلس •• ص : ٢٠٥/٢٠٦ •

(٣) توفي أبو عبد الله الصغير سنة ٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م ، ودفن بفاس ، ويعرف بالروايات الاسبانية بمحمد الحادي عشر ، وبالملك الصغير : Ll Rey Chico تمييزا له من عمه أبي عبد الله الزغل ، ويلقب أبو عبد الله الصغير « بالزغيبي » ، ومعناها المنكود ، أو عاثر الجد •• تنويها بما أصاب الاسلام على يديه من الخطوب والمحن •

ومرّت السنون ، وخبا أثر مصرع الأندلس شيئاً فشيئاً في نفوس المسلمين ، وأسدل ستار من النسيان عليه ، ولكن المأساة الأندلسية لم تنته بسقوط غرناطة ، بل ظهرت مأساة العرب المتنصرين « أو الموريسكيين » ، وظهرت محاكم التفتيش التي هدفت إلى إبادة المسلمين جميعاً في الأندلس .

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة مؤسفة لشعب مغلوب ، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً ، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس ، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها ، وحرق من بقي منهم ، وزاد الكردينال «كمينس» على ذلك ، فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ، ونظمت أكداساً في أكبر ساحات المدينة ، وفيها علوم لا تقدّر بثمن ، بل هي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الإنساني ، وأحرقها . يقول غوستاف لوبون : « ظن رئيس الأساقفة الاسباني « كمينس » أنه بحرقه مؤخراً ما قدر على جمعه من كتب أعداء دينه العرب (أي ثمانين ألف كتاب) محا ذكرهم من صفحات التاريخ إلى الأبد ، وما درى أن ما تركه العرب من الاثار التي تملأ بلاد اسبانيا يكفي لتخليد اسمهم إلى الأبد » .

محاكم التفتيش(١) « أو التحقيق » : The Inquisition
هدفت إلى تنصير المسلمين باشراف السلطات الكنسية ، وبأشد

(١) شكلت المحاكم في اسبانية بمرسوم بابوي في تشرين الثاني « نوفمبر » سنة ١٤٧٨ م .

وسائل العنف ، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية ، التي اسبغت على سياسة اسبانية الغادرة ثوب الدين والورع .

ولما قاوم المسلمون التنصير وأبوه ، اعتبروا ثواراً متَّصلين بالمغرب والقاهرة والقسطنطينية ، وبدأ القتل فيهم فثاروا بالفعل في غرناطة والبيازين والبشرات ، فمزّقوا بلا رأفة . وفي ٢٠ تموز « يولية » ١٥٠١ أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته : « إنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، فانه يحظر وجود المسلمين فيها .. ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال » .

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها ، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصُّرَه ، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروِّع . فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه ، يزج به في السجن ، وكانت السجون رهيبة : عميقة ، مظلمة ، رطبة ، تغص بالحشرات والجرذان .. يصفَّد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم ، لتدفع نفقات سجنهم . ومن أنواع التعذيب : املاء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهره ، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ورفعه وخفضه معلقاً ، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه . والأسياخ المحمية ، سحق العظام بآلات ضاغطة ، تمزيق الأرجل وفسخ الفك ... ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة

المتهم في خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده، أو جف دمه[1] .

وقرار المحكمة لا يتم إلا عند التنفيذ في ساحة البلدة ، وهو إما سجن مؤبد ، أو مصادرة أموال وتهجير ، أو اعدام حرقاً وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع المَلِكَيْن الكاثوليكيين حفلات الاحراق ، **وهذه صورة من محاكمات التفتيش(٢) :**

قُبض على مسلم وسيق إلى المحاكمة ، وكان ثبات ذلك الرجل أمام هيئة المحكمة مما دعا إلى زيادة حفيظتهم عليه والمبالغة في تعذيبه .

جيء بذلك الرجل أمام المحكمة ، فقال رئيس المحكمة لجنود التفتيش : ضعوا الحديد في أصابعه الآن وقدموه إلينا ، ففعلوا . ثم جيء بذلك المسكين أمام المحكمة وقد أعياه الألم فسقط مغشياً عليه ، فقال الرئيس : أوقفوه . فأجاب أحد الحراس : إنه لا يقوى على الوقوف ، فقال رئيس المحكمة : إذاً فضعوه في التابوت فإنه يقف فيه .

فوضعوه في التابوت ، وهو صندوق مربَّع فيه مسامير من الداخل ، فاضطر المعذَّب أن يقف رغم ما به من إعياء وضعف ، ثم

---

(١) ومن انواع التعذيب الدفن على قيد الحياة . راجع فصل « طرق التعذيب في محاكم التفتيش » ص : ٩١ من كتاب « محاكم التفتيش » .

(٢) عن كتاب « محاكم التفتيش » د. علي مظهر ، مطبعة أنصار السنة المحمدية، ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م ، صفحة : ٨٢ ، ، تحت عنوان : « محاكمة مسلم من بقايا المسلمين .. وكيفية استجوابه أمام محكمة التفتيش » .

رفعوا الكمّامة التي كانت على فمه ليتمكّن من الإجابة على الأسئلة ، وعندها تنفّس المسكين الصعداء طويلاً ، أمر الرئيس بأن يسقوه قليلاً من الخمر ، فلما شرب قليلاً منها تفتحت عيناه وحدث عنده شيء من الانتعاش ، وفحصه الطبيب حتى علم أنه قادر على الوقوف والاستجواب ، فأبلغ ذلك هيئة المحكمة ، فوجه إليه الرئيس الأسئلة الآتية ، وكان يجيب عليها كما ترى :

قال الرئيس : ما اسمك ، فأجاب : أنا مسلم عربي •

الرئيس : كلا بل اذكر اسمك المسيحي الجديد • فأجاب : صموئيل فرناندس •

الرئيس : قل صدقاً : كم عمرك ؟ فأجاب : ثلاث وثلاثون سنة مثل عمر المسيح •

الرئيس : إذن أنت مستعد للتضحية ؟ فأجاب : بإذن الله •

الرئيس : أتقبل ذلك وأنت راضٍ ؟ فأجاب : نعم •

الرئيس : إذن قل : من هو إلهك ؟ فأجاب : هو إلهكم نفسه •

الرئيس : وما اسمه ؟ فأجاب المسلم : الله في سماء ملكوته •

الرئيس : بل قل معي : يسوع المسيح • فأجاب الرجل وهو يرتعد : يسوع المسيح •

الرئيس : يظهر عليك أنك تأثّرت من ذكر هذا الاسم ، أليس كذلك ؟

قال الرجل مجيباً : أجل •

الرئيس : وما نوع ذلك التأثير ؟ فأجاب : تأثير داخلي •

الرئيس : وماذا قال لك هذا الصوت الداخلي ؟

الرجل : لا أدري ، فاني الآن لا أدري ما أقول •

الرئيس : قل ما فكرت فيه بصوت مسموع •

الرجل : لا أقدر على الكلام لأني متألّم جداً من الضغط على صدري ، والكلام لا يكون حسب الأمر بل حسب الاستطاعة•

الرئيس : ستنظر ذلك جيداً جداً • ونظر الكاتب الى الرئيس مستفهماً ، فقال الرئيس : أظن أن ضرب وجهه بالسوط يمكنه من الكلام •

وسرعان ما جذبه أحد رجال التعذيب ، وجعل يجلده على وجهه بجلدة سميكة مبلّلة بالماء ، فاحمر جلد وجهه • وكاد يخرج منه الدم وجعل يتلوى من الألم ، فقال له كاهن : تعال ياصموئيل تقدم واعترف أمامي بكل خطاياك ، وقل لي : بماذا تفكّر الآن ؟ قل الحق قبلما يحل بك القصاص ، تقدم يا بني • الحق بيدك يا محمد ، لقد كان هذا اسمك قبل اعتناقك المسيحية ، فلماذا سميت نفسك صموئيل ولم تختر اسم قديس مسيحي كبطرس أو بولص ؟ ثم نظر إلى الكاتب وقال اكتب : أين ولدت ؟ فأجاب: في طنجة •

الكاهن : أإسباني أنت ؟ فأجاب : كنت اسبانياً ؟

الكاهن : ولماذا تقول كنت ؟ فأجاب : أقول هذا لأني لست باسباني لكي أظل اسبانياً إلى الأبد •

الكاهن : وأبوك ؟ فأجاب : ليس لي أب فانه قد مات •

الكاهن : وأمك ؟ فأجاب : ماتت أيضاً •

الكاهن : وأين ماتا ؟ فأجاب : في سجون ديوان التفتيش •

الكاهن : أحرقاً ؟، فأجاب : كلا بل تعذيباً حتى تهرّأت اجسادهما ، فماتا من شدة العذاب •

الكاهن : وبماذا اتّهما ؟ فأجاب : لقد كانا بريئين •

الكاهن : هل لك أخوة ؟ فأجاب : أظن ذلك •

الكاهن : كيف تظن !؟ أين اخوتك وأين يقيمون ؟•

الرجل : بل قل أولا : أين ماتوا وأين قبورهم ؟

الكاهن : يظهر أنك تريد أن ينفد صبرنا معك ، فسنبدأ بتعذيبك •

الرجل : يسوءني هذا

الكاهن : إذن أنت لا تريد أن تدلنا على البقية الباقية من اخوتك ولا عن مكان إقامتهم ! إن الديوان المقدّس لا يخفى عليه أن لك إخوة هم على قيد الحياة ، وهم يصلّون في مساجد خفية، ألا تعلم أين هم ؟

الرجل : لا أعلم .

الكاهن : لما صدر الأمر بسجنهم هربوا ، أفلا تعلم إلى أين؟

الرجل : كلا .

الكاهن : تذكر جيداً علّك تعلم .

الرجل : كيف يمكنني أن أتذكر وأنا مضطرب الفكر ضائع العقل ؟

الكاهن : يجب أن تساعدنا على معرفة مقرهم حتى تخلص نفوسهم .

الرجل : على غرار ما ستفعلون معي الآن .

الكاهن : أنت تسكن مع امرأة ، فمن تكون هذه ؟ فأجاب: زوجي .

الكاهن : كيف يمكنك ادعاء هذا ؟

الرجل : هل تريد أن يكون الأمر كذ لك .

الكاهن : علمنا أنها مسيحية وأنت بهذا العمل تخالف آداب ديننا المسيحي وتنبذ العفاف ، فيجب عليك أن تسلم زوجك للديوان المقدّس .

الرجل : هل هذا هو العفاف والدين عندكم ؟

الكاهن : نحن لا نجادلك بل نأمرك .

الرجل إذا كنتم تأمرونني فأولى بكم أن تقتلوني ، وهــذا كل ما يمكن أن تفعلوه ، وعندئذ سوف تصلي زوجي من أجلي•

الكاهن : ويلك يا شقي لا تزال مُصِراً على انكارك ؟ اصلح هفواتك وخطأك ياهذا ، وإلا فانك سوف تدفع لعنــادك ثمناً باهظاً ، والآن فلنتم أعمالنا : أين اخوتك وأين زوجك ؟

الرجل : هم في مكان أمين •

الكاهن :أ لا تريد أن تعترف بأكثر من هذا ؟

الرجل : إني اعترف إلى الله خالقي فحسب ، أنتم تعذبونني والله يعلم اني بريء •

الكاهن : سوف تساق إلى التعــذيب الآن ، فالأولى لك الاقرار •

الرجل : لا يهمني العذاب ، فان جسمي مخدّر لا يشعر •

الكاهن : إذا لم تجب على ما سألناك الآن فسوف تسقى الماء رغم أنفك ، يدفع إليك من حلقك حتى يقضي عليك •

الرجل : لقــد احترقت رجــلاي أولاً بناركم فلم أمت حتى الآن •

فقال أحد القسس ، وهو يتصنّع الرقة والعطف عليه بصوت متكلف : اعلم يا بني أننا لا نرمي من وراء تعذيبك إلا إلى الاقرار عن بقية أهلك الذين تحبهم ، وبذا تنجي نفسك ونفوسهم ونصعد بكم إلى السماء •

فأجاب الرجل : إذا صعدنا نحن إلى السماء فمن يهوي بكم إلى الجحيم وبئس القرار !؟

وعندئذ أشار أحد رؤساء المحكمة بيده إشارة سريعة إلى المعذبين المرتدين الثياب السود الواقفين أمام آلات التعذيب ، فهجموا عليه وأخذ بعضهم يضع الحبال في يديه وصدره معاً ، ويلفها لفاً ، وآخرون ربطوا رجليه بحبل دقيق ، ثم وضعوه على مائدة خاصة وأعادوا ربطه عليها ربطاً وثيقاً ، وتقدم أحد هؤلاء المعذّبين وهو يحمل جرة ملأى بالماء ، وتقدم آخر وفي يده قمع ، فقال الكاهن الموكل بعظة الخاطئين والصلاة لأجلهم :

ـ والآن يا صموئيل لماذا تضطرنا يا بني إلى تعذيبك واحداث هذه الآلام لك ، مادمت قادراً على الخلاص من هذا كله إذا ما قلت لنا أين اخوتك وأين زوجك ؟!؟

فأجاب الرجل : لا يمكنني أن أقول لكم شيئاً عنهم لأني قد وعدتهم وأقسمت لهم بأن لا أخونهم وأسلمهم لديوان التفتيش .

فقال الكاهن : ولكننا لا نعتقد أنهم يرضون لك هذه الحال وهذا العذاب الأليم .. إن هذا السكوت لا يُعَدُّ أمانة الآن بل يُعَدُّ جنوناً .. قل قبل أن يبدأ الرجال بتعذيبك .

الرجل : إنني أشكر لكم إذا ما قتلتموني مرة واحدة .

الكاهن : دع عنك هذا العناد يا رجل ، واعلم جيداً أنك

سوف تموت دون أن يعلموا بأنك مت فداء لهم . والمحكمة سوف تقبض عليهم إن عاجلاً وإن آجلاً فتكون قَدْ متّ أنت من غير ما فائدة ، ومع هذا فان زوجك هذه سوف تنساك لا محالة وتتزوج سواك ، وربما تكون قد خانتك الآن . فصاح الرجل قائلاً : صه أيها النذل الحقير ، واعلم جيداً أن عذابكم لجسدي لا يعنيني قدر تعذيبكم بكلامكم هذا الذي تلفظه ألسنتكم القذرة السّامة !

وبكى الرجل وبدؤوا بتعذيبه فكان صراخه يملأ القاعة ، ولكن ليس من منقذ ، بيد أن القسس كانوا وقوفاً يصلون وبأيديهم كتبهم يرتلون منها الأناشيد المسيحية .

وبينا هم يعذبون المسكين على هذه الصورة سيقت سيدة أمام المحكمة وكانت رابطة الجأش ذات شجاعة مدهشة ، ونظر إليها رئيس المحكمة بنظرات حادّة ، كلها الحقد والغضب والانتقام ، وسألها قائلاً :

ـ ما اسمك يا هذه ؟

ـ سوزانا فرناندس .

وسمع زوجها المعذّب ذلك فأنّ أنيناً طويلا محزناً ، فقد عَرَفَ أنهم قبضوا على زوجه المسكينة ، وأنها وقعت بين براثن أولئك الوحوش العتاة ، أما هي فلم تتمكن من معرفة من يُعَذَّب لما استولى على القاعة من ظلام ، ولكنها عندما سمعت الأنين

التفتت لترى من يئن وعندها أخذ رئيس المحكمة في استجوابها وعيناه تتقدان شرراً ، ومنهما ينبعث الشرر لالتفاتها واستمر يسألها قائلاً :

ـ بنت من أنتِ ؟ فأجابت : لا أعلم .

ـ ألا تعلمين من هما أبواكِ ؟ فأجابت : كلا ، إنما رأيت ذات مرة رجلاً ماراً بحي « تريانا » ، فقالوا لي : إن هذا أبي .

ـ أهذا كل شيء ؟! فأجابت : نعم ...

ـ وأمك من تكون ؟! فأجابت : هي أمي .

ـ وأين هي ؟ فأجابت : ماتت .

ـ وأين ماتت ؟ هل سقطت في الوادي الكبير ؟

ـ كلا بل قتلت قتل العمد .

ـ وكيف كان هذا ؟

ـ إنها ماتت جوعاً في سجون ديوان التفتيش .

ـ وأين كانت تسكن قبل أن تسجن ؟

ـ مع رجل من بقايا العرب ، كان يمر ببابنا كل يوم وقد عزم أخيراً على أن يسكن معها إلى الأبد ، فسكن وسأنضم أنا لهما أيضاً .

ـ وهل مات ذلك الرجل ؟

ـ نعم قد مات في سجون ديوان التفتيش .

ـ أكان مسيحياً ؟

ــ لا أدري ، ومع هذا فَلِمَ تسألونني عن المسيحية كثيراً؟ وما هو دخل الديانة المسيحية في ديوان التفتيش ؟!!

وما كادت السيدة تتم كلامها حتى بــدأ رجال العذاب في تعذيبها تعذيباً مخيفاً تقشعر من ذكره الأبدان •

ومما يذكر •• أن هناك عذاباً اختص به النساء وهو : تعرية المرأة إلا ما ستر عورتها ، وكانوا يأخذونها إلى مقبرة مهجورة ، ويجلسونها على قبر من القبور ، ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدّون وثاقها ، وهي على هذه الحالة السيئة ، ولا يمكنهــا الحراك ، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية ، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنيَّة لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله ، وتترك المسكينة على هذا الحال إلى أن تجن أو تموت جوعاً ورعباً[1] •

وعند احتلال نابليون لاسبانية بعد قيام الثورة الفرنسية ، أصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨ م بإلغاء محاكم التفتيش في اسبانيا ، ولكن رهبان « الجزويت » أصحاب المحاكم الملغاة استمروا في القتل والتعــذيب ، فشمل ذلك الجنــود الفرنسيين ، فأرســل المريشــال « سولت » الحــاكمُ العسكريُّ الفرنسي لمدريــد الكولونيل « ليمونكي » مع ألف جندي وأربعة مدافع ، وهاجم دير الديوان ، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا على

(١) محاكم التفتيش ، صفحة : ٩٣ •

شيء ، فقرر الكولونيل « ليمونكي » فحص الأرض ، وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة .

أمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة ، فرفعت ، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة ، ففعلوا . فإذا الماء يتسرب إلى أسفل في إحدى الغرف ، فعرفوا أن الباب من هنا ، يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس . وفتح الباب بقحوف البنادق ، واصفرت وجوه الرهبان وكستها غبرة . وظهر سلم يؤدي الى باطن الأرض

ونزل القائد الكولونيل وجنده . ويذكر هذا الانسان في مذكراته مايلي[1] :

★ فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة ، هي عندهم قاعةالمحكمة، في وسطها عمود من الرخام ، به حلقة حديدية ضخمة ، ربطت بها سلاسل ، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة .

وأمام ذلك العمود عرش « الدينونة » كما يسمونه ، وهو عبارة عن « دكة » عالية يجلس عليها رئيس الديوان[2] ، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدة لجلوس جماعة القضاة .

ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب ، وتمزيق الأجسام البشرية . وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض .

---

(١) راجع « التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام ، دحض شبهات ورد مفتريات » للاستاذ محمد الغزالي ، الطبعة الثالثة ، : ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م ، صفحة : ٣١٦ .

(٢) رئيس ديوان محكمة التفتيش .

وقد رأيت بها ما يستفز نفسي ، ويدعوني إلى التقزز ما حييت •

رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الإنسان ، بعضها عمودي وبعضها أفقي ، فيبقى سجين العمودية واقفاً بها على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه ، ويبقى سجين الأفقية ممدداً بها حتى يموت • وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى ، ويتساقط اللحم عن العظم • ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج ، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية ما زالت في أغلالها سجينة •

والسجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين ، واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء ، وتحطيم أغلالهم ، وهم على آخر رمق من الحياة ، وكان فيهم من جُنَّ لكثرة مالاقى من عذاب ، وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم ، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ، ويستروا بها لفيفاً من النساء السجينات •••

وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ماتقشعر لهوله الأبدان ، عثرنا على آلات لتكسير العظام ، وسحق الجسم •

وكانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل ، ثم عظام الصدر والرأس واليدين ، وذلك كله على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على البدن المهشم ، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة •

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً ، يوضع فيه الرأس المُعَذَّب ، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه

ورجليه فلا يقوى على الحركة • وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد ، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة • وقد جُنَّ الكثيرون من ذلك اللون من العذاب ، قبل أن يحملوا به على الاعتراف ، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت •

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى بالسيدة الجميلة ، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها ، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة • وكانوا يطرحون الشاب المعذَّب فوق هذه الصورة ، ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره ، فإذا أغلق مُزِّق الشاب وتقطّع إرباً إرباً •

كما عثرنا على جملة آلات لسل اللسان ، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة ، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المُعَذَّبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظام •

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جُنَّ جنونهم وانطلقوا — كمن به مسّ — فأمسكوا برئيس الدير ووضعوه في آلة تكسير العظام ، فَدُقَّت عظامه دقاً ، وسحقتها سحقاً • وأمسكوا أمين سره ، وزفّوه إلى السيدة الجميلة ، وأطبقوا عليهما الأبواب ، فمزَّقته السكاكين شر ممزَّق ، ثم أخرجوا الجثتين ، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك •

★ ★ ★

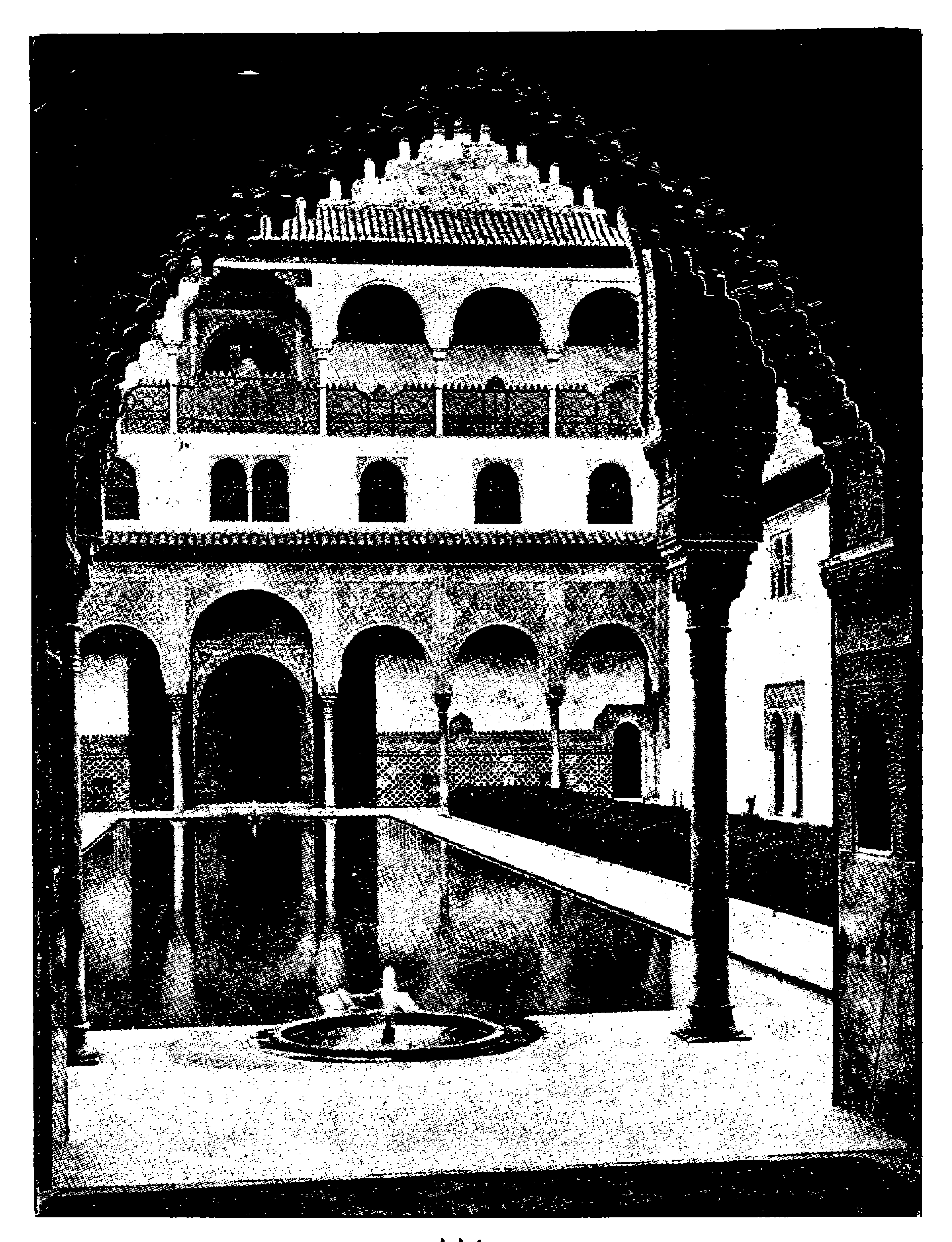
وأخيراً .. إن مقارنة بسيطة بين الفتح الإسلامي للبلاد المسيحية، والاحتلال المسيحي للبلاد الإسلامية، تعطي فكرة واضحة جلية عن تسامح المسلمين وحرية المعتقد تحت سلطانهم ، وتعطي في الوقت ذاته صورة جلية لتعصُّب المسيحيين والقمع والمجازر والتحريق الذي رافق انتصاراتهم ، إنْ في الحروب الصليبية في المشرق ، أو في حروبهم الصليبية في اسبانية .

فالمسلم لم تجش في نفسه نوايا الغدر والفتك والخيانة والقتل الجماعي والتحريق لغير أبناء دينه ، وقد حكم قروناً طويلة ولم نسمع عنه ولو مرة واحدة بمثل ما جرى في محاكم الفتيش. لقد حفظت مبادىء الإسلام لغير المسلم حقوقه ، وعرفته بواجباته التي لا تختلف كثيراً عن واجبات المسلمين ، وفي كل الظروف عُومِلَ غير المسلم « إنساناً » تُحْتَرَم انسانيته .

ولما صار زمام القوة والحكم بيد النصارى الاسبان ، استؤصل المسلمون وأبيدوا وحُرِّقوا وهُجِّروا ومع هذا كله يُتَّهم الإسلام بالقسوة والسيف ، ويُوصف المسيحيون بالتسامح والعطف والكلمة الطيبة ، فأيُّ ظلم يصيب الإسلام عندما يُكْتَبُ تاريخه في أوربة ؟!؟

إن ما يفعله الأوربيون بالإسلام يسمى « وسائل الدفاع الأولية » ، أو ما يعرف بعلم النفس « بالاسقاط » **ألا وهو اتهام** الآخرين بما فينا !!

★ ★ ★



خاتمة

عبرة وعظة

بسم الله الرحمن الرحيم :

✶ « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

« الاسراء : ١٦ »

وهكذا كان مصرع غَرْناطة والحضارة الإسلامية في الأندلس ، وفي قصيدة أبي البقاء صالح بن شريف الرُّنْدي تفسير لتلك المأساة التي تقع فيها الأمم والحضارات عندما تترك عوامل القوة والنصر ، وتنحدر بسبب الدعة والخنوع والترف ..

يقول الرُّنْدي[1] :

لكل شيء إذا ما تمَّ نُقْصانُ
فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانُ

---

(١) القصيدة ٤٢ بيتا في « نفح الطيب » ، ج : ٦ ، ص : ٢٣٤ وما بعد ، والقصيدة لم تقل في رثاء الاندلس عند سقوطها النهائي ، ولكنه نظمها قبل ذلك حينما سقطت القواعد الاندلسية الكبرى كقرطبة وبلنسية واشبيلية ومرسية ...

هي الأمور كما شاهدتها دُوَلٌ
مَنْ سرّه زمن ساءته أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ
ولا يدوم على حال لها شأنُ
يمزّق الدهر حتماً كلّ سابغة
إذا نبَتْ مشرفيات وخرصانُ[1]
أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ
وأين منهم أكاليل وتيجانُ
أتى على الكلّ أمرٌ لا مردّ له
حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ
كما حكى عن خيال الطيف وَسْنانُ
فجائعُ الدهر أنواع منوّعةٌ
وللزمان مَسَرّات وأحزانُ
وللحوادث سُلْوان يُسهّلها
وَمَا لما حلّ بالإسلام سلوانُ
دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاء له
هوى له أحُدٌ وانهدّ ثهلانُ[2]

---

(١) السابغة : الدروع ، والمشرفيات : السيوف ، ونبوها : ألا تصيب الضريبة، والخرصان : أراد بها الرماح .

(٢) أحد وثهلان : جبلان .

فاسأل بَلَنْسيةً ما شأن مُرْسِية
وأين شاطبة أم أين جَيَّانُ ؟

وأين قُرْطبة دارُ العلوم ، فكم
من عالم قد سما فيها له شانُ

قواعدٌ كنّ أركان البلاد فما
عسىَ البقاء إذا لم تَبْقَ أركانُ

تبكي الحنيفيةُ البيضاءُ من أسَفٍ
كما بكى لفراق الإلْفِ هَيْمانُ

على ديار من الإسلام خالية
قد أقفرت ولها بالكفر عُمْرانُ

حيث المساجِدُ قد صارت كنائس ما
فيهن إلا نواقيسٌ وصُلْبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
حتى المنابر ترثي وهي عيدان

يا غافلاً وله في الدهر موعظة
إن كنت في سِنَةٍ فالدهر يقظان

يا راكبين عتاقَ الخيل ضامرةً
كأنها في مجال السبق عقبان

وحاملين سيوفَ الهند مُرْهفَةً
كأنها في ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر[1] في دَعَةٍ
لهم بأوطانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ مِنْ أهل أندلس
فقد سرى بحديث القوم رُكْبانُ

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتز إنسانُ

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم
وأنتمُ يا عباد الله إخوانُ

ألا نفوس أبيَّات" لها همم
أما على الخير أنصار وأعوانُ

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
واليومَ هم في بلاد الكفر عبدانُ

فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهم
عليهم من ثياب الذل ألوانُ

يا رُبَّ أمٍّ وطفلٍ حِيلَ بينهما
كما تَفَرَّقُ أرواح وأبدانُ

وطفلةٍ مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنما هي ياقوت" ومَرْجَانُ

يقودها العلج للمكروه مكرهةً
والعينُ باكية والقلب حيرانُ

(١) في هذا البيت يستحث أهل العدوة المغربية .

لمثل هـــذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ
إن كان في القلب إســلامٌ وإيمانُ

★ ★ ★

وستبقى ذكرى ضياع الأندلس ، عبرة لأمتنا ، نرى من خلال الذكرى عواقب التنازع والانقسام ، عواقب الانحلال الخلقي والتفرقة ، عواقب الموشَّحات ورقص السماح .

المسلمون في نصف قرن فتحوا نصف الدنيا ، لكن بوحدة الكلمة ، والتحام الصف ، ووضوح الهدف ، مع متانة العقيدة.. وبالانقسام ، بل بالاستعانة بالعدو ، قلب الله عِزَّهم ذلاً ، وغناهم فقراً ، وقوتهم ضعفاً ، وأمنهم تشرُّداً ونزوحاً .

وعلَّة السقوط عرفها القريب والبعيد ، ونصحنا الصديق والغريب .. إنها ترك ديننا وفضائلنا ، والميل إلى الخفة والمرح والاسترسال في الشهوات ..

سُئلت مرة عن سبب ضياع الأندلس ، فقلت[1] :

دخلنا الأندلس بشجاعة وفداء طريف بن مالك ، وعزيمة طارق بن زياد ، وإيمان موسى بن نصير ، وطموح عبد الرحمن الغافقي ، وبطولة السمح بن مالك الخولاني . وتَجدَّد الاسلام فيها بنجدة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، وبنخوة يعقوب المنصور الموحِّدي .

(١) راجع كتابنا « عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الاسلامي » الطبعة الاولى ، صفحة : ١١٠ ، وما بعدها .

بقينا في الأندلس ما بقينا مع الله ، وضاعت الأندلس — وصُرِعت غرناطة وخَرَّت صريعة — لما أضعنا طريق الله .

ومرَّت الأيام ، ومال المسلمون في الأندلس إلى حياة الرخاء والنعيم ، متناسين من يمكر بهم ، ومن يجمع صفوفه لسحقهم ، كان عدوُّهم يستعد عسكرياً ، ويوحِّد كلمته ، وهم في خصوماتهم وموشحاتهم وسماحهم وخمرتهم وترفهم مخمورون .

دخلنا الأندلس عندما كان نشيد طارق في العبور الله أكبر ، ذلك النشيد الذي لامس سمع الزمان فترنَّم لعذوبته ، وصدقه ، وجلاله ..

وخرجنا منها لما صار النشيد :

دَوْزِنِ العودَ وهاتِ القَدَحَا
راقتِ الخمرةُ والوَرْدُ صَحَا !!

ومما يؤسف له ، ويدمي القلب حزناً ، أن لا نحيي من أمجاد الأندلس إلا قشورها ، وما كان من أسباب ضياعها ، أمَّا حضارتها ، أمَّا علومها وأسباب ازدهارها وسيادتها ، فقد جعلناه وراء ظهورنا ، واكتفينا بما أحييناه من الموشَّحات ، ورقص السماح .. لذلك تكرَّرت العلة والهزيمة والضياع .

تَشَتَّتَ الأندلس إلى دول تكرر إزاء فلسطين ، فضاعت ، أما دخلنا حرب ١٩٤٨ سبع دول ؟ أما هُزِمنا لأننا سبع دول ؟ وما فضيحة الأسلحة الفاسدة ، و « ماكو أوامر » في نكبة

فلسطين ، إلا نوع من التعامل مع العــدو ضــد الأخ والمواطن العربي ، فيا عجباً .. لقد تكرَّرت الصورة !؟!

نرجو الله عز وجل أن يجعل من عبر الأندلس منطلقاً لوحدتنا، ورصٍّ صفوفنا ، ولَمٍّ شعثنا . فالتاريخ خير شاهد أنّنا منذ انطلقنا ، انطلقنا بالإسلام ، وبسنا نوره كتبنا أمجادنا ، وبــه سُدْنا وحققنا انتصارنا .

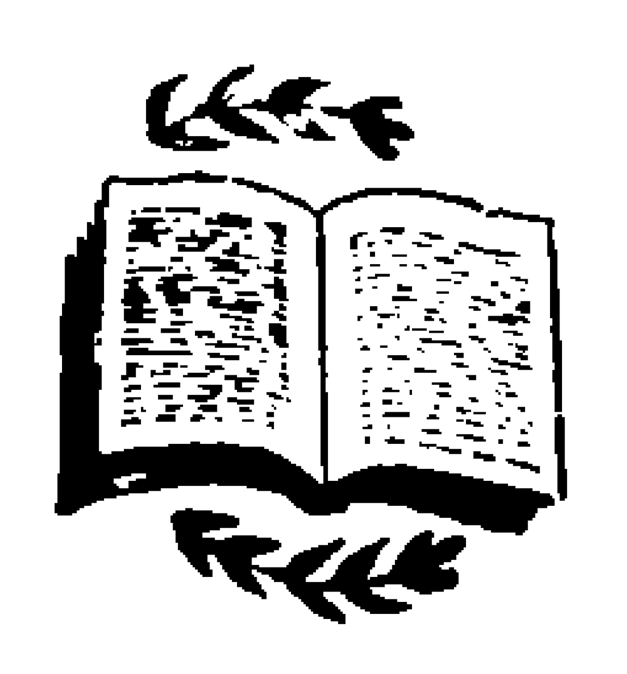
فهل من معتبر بأحداث الأندلس وضياعها ؟!؟

هل من متَّعِظٍ من تكرار الصورة الأندلسية في فلسطين وغيرها ؟!؟

بسم الله الرحمن الرحيم :

« إن في ذلك لذكرى لمن كــان له قلب أو ألقى السمع وهــو شــــهيد »

صدق الله العظيم .





المحتوى

صفحة

صفحة

★ ★ ★

صفحة

★ **المصورات والصور**

★ ★ ★

للمؤلف

١ - الإسلام في قفص الاتهام (ترجم إلى الفارسية)

٢ - مَنْ ضيَّع القرآن ؟

٣ - الإنسان بين العلم والدين

٤ - هارون الرشيد

٥ - غريزة .. أم تقدير إلهي ؟

٦ - آراء يهدمها الإسلام

٧ - الإسلام وحركات التحرر العربية

٨ - عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي

٩ - الهجرة « حدث غيَّر مجرى التاريخ »

١٠ - جرجي زيدان في الميزان

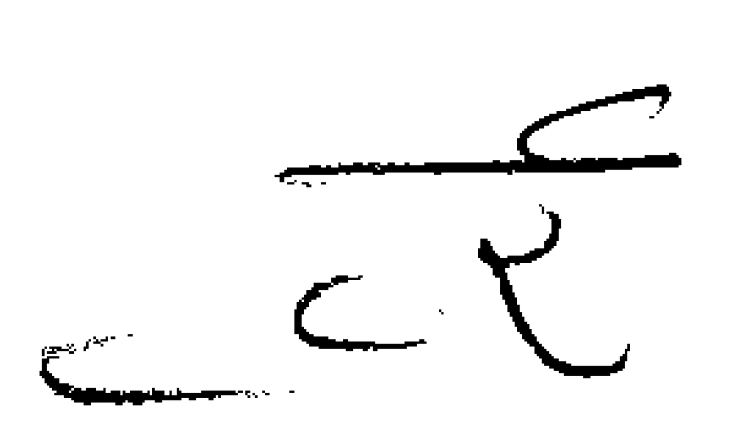
☆ ☆ ☆

سلسلة

«المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام»

١ ـ القادسية	بقيادة سعد بن أبي وقاص
٢ ـ اليرموك	بقيادة خالد بن الوليد
٣ ـ نهاوند	بقيادة النعمان بن مقرِّن المزني
٤ ـ ذات الصواري	بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح
٥ ـ فتح الأندلس	بقيادة طارق بن زياد
٦ ـ بلاط الشهداء	بقيادة عبد الرحمن الغافقي
٧ ـ فتح صقلية	بقيادة أسد بن الفرات
٨ ـ الزلاقة	بقيادة يوسف بن تاشفين
٩ ـ الأرك	بقيادة المنصور يعقوب الموحِّدي
١٠ ـ العقاب	بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحِّدي
١١ ـ مصرع غرناطة	« أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر»

☆ ☆ ☆



غزوات الرسول الأعظم

بَدر الكبرَى	:	رمضان ٢ هـ ـ كانون الثاني ٦٢٤م
غزوَة أُحُد	:	شوال ٣ هـ ـ كانون الثاني ٦٢٥م
غزوَة الخندق	:	شوّال ٥ هـ ـ شباط ٦٢٧م
صلح الحديبيَة	:	ذي القعدة ٦ هـ ـ شباط ٦٢٨م
غزوة خَيبَر	:	المحرّم ٧ هـ ـ آب ٦٢٨م
غزوة مؤتة	:	جمادى الأولى ٨ هـ ـ إيلول ٦٢٩م
فتح مكة	:	رمضان ٨ هـ ـ كانون الثاني ٦٣٠م
حُنَين والطائف	:	شوّال ٨ هـ ـ شباط ٦٣٠م
غزوة تَبُوك	:	رجب ٩ هـ ـ تشرين الأول ٦٣٠م
«حُروبُ الرِّدّةِ»	:	«في خلافة الصّديق سنة ١١ هـ»